الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغوليانا

تصميم الغلاف

عبد الله القصير

الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغوليانا

تأليف: فلاديسلاف أوليغوفيتش أوتروشينكو

ترجمة: د. محمد جميل قاجو

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

Гоголиана.

الكاتب: Владислав Олегович Отрошенко

الناشـر: Издательство Ольги Морозовой,2016

المترجم: د. محمد جميل قاجو

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

غوغوليانا/ تأليف فلاديسلاف أوليغوفيتش أوتروشينكو؛ ترجمة: محمد جميل قاجو .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م .- ١٦٨ص؛ ٢٠سم.- (المشروع الوطني للترجمة. القصة العالمية؛).

١- ٨٩١,٧٣ أ و ت غ ٢- العنوان ٣- أوتروشينكو

٤ – قاجو ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

غوغول وجواز السفر

كان جواز سفر غوغول الخارجي[1]، الذي عُدَّ بالنسبة له بمنزلة الضمان الأكيد للسفر المحبَّب إلى قلبه الغامض بشكل لا يوصف دون عقبات، على ما يرام دائماً. كان على ما يرام، في تلك الدقيقة من كانون الأوَّل عام ١٨٤٦، عندما ظهرت لدى غوغول فجأة فكرة غير عادية، أن يطلب من الإمبراطور نيكولاي بافلوفيتش... جواز سفر خارجياً. حدث هذا في نابولي، في منزل الكونتيسة صوفيا أبراكسينا، حيث قضى غوغول الشتاء. كانت الفكرة حادَّة جداً وحيوية لدرجة أن غوغول، الذي لم يكن ذلك الشهر هو الأوَّل الذي يتوقَّف فيه خياله عن النشاط، ولم يكن الشهر الأوَّل الذي ينتظر فيه بذهول كئيب باخرة مريحة وروحاً معنوية عالية للإبحار إلى فلسطين، إلى قبر السيد المسيح للصلاة بخشوع، وفي الحال وبالحماسة السابقة نفسها أمسك ريشة الكتابة.

---

(١) في روسيا يعتمد نوعان من جوازات السفر، أحدهما داخلي، كما الهوية لدينا، والثاني خارجي، للسفر إلى خارج البلاد ولا يزال ذلك قائماً حتى اليوم. (المترجم).

«صاحب السيادة الأكثر رحمة!

لا تغضب لأنني أجرؤ على إقلاق راحتك، خلال استراحتك القصيرة من أعمالك المرهقة كثيراً، بطلبي الذي يمكن أن يكون غير مناسب».- هكذا بدأت رسالة نابولي الناريَّة لغوغول، حول جواز سفر خارجي، إلى القيصر نيكولاي الأوَّل.

بالطبع، لم يستطع القيصر أن يشعر تماماً بهذه النيران المخفيَّة، ليس لأنَّها كانت مخفية بالكلمات الأوليَّة الضخمة للرسالة، لا. كل ما في الأمر أن القيصر لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا كانت عليه العلاقات المعقَّدة والمدهشة وغير العادية إلى أقصى حدٍّ مع جواز سفره، إذ كان مواطنه، مؤلِّف «النفوس الميتة»، يتجوَّل طوال الوقت في الخارج. كان يعرف ذلك فقط، أولئك القلَّة من أصدقاء غوغول ومعارفه الذين أتيحت لهم الفرصة للسفر معه في عربة واحدة عبر دول أوروبا، والمسؤولين

المجتهدين متعددي اللغات القلائل الذين جرى وضعهم على الطرق الأنيقة لهذه الدول، والذين تصادف أن خاطبوا غوغول، بحكم واجبهم كشرطة أو في الخدمة على الحدود، بكلمات مهذبة عادية كلٍّ بلغته: «من فضلك أرني جواز سفرك يا سيدي!»

هنا تجلّت العلاقة الغريبة غير المفهومة، بين غوغول وجواز السفر بكامل قوتها.

كان جواز السفر في جيبه وعليه التوقيعات والأختام المناسبة. وما كان غوغول يحتاج سوى لسحبه من جيبه وإظهاره لموظف الشرطة ومواصلة السفر بأمان. لكن غوغول لم يسحبه ولم يظهره. كرَّر الشرطي طلبه بأدب بلغة أوروبية أخرى وبصبر معتاد توقَّف قليلاً، ولم يكن ليشك فيما ينتظره. في غضون ذلك، نظر غوغول جانباً بانفعال وكأنَّه مستاء. وفجأة أعلن للشرطي بلغته وبلهجة حازمة غير وديَّة أنَّه لن يُظهر له أي جواز سفر، رغم أنَّه كان يحمله.

طالبه الشرطي الذي أصبح أقل لباقة وأكثر انفعالاً بإبراز جوازه، محاولاً، وباندهاش، فهم ما يحدث، لكن غوغول أصرَّ على موقفه «لا يعطي جوازه وحسب»- يتذكَّر ناشر «موسكوفيتيانين» ميخائيل بوغودين، بأسف، أنَّه وجد نفسه أكثر من مرَّة في مغامرة على طرقات أوروبا بسبب جواز سفر غوغول، لأنَّه لم يرغب في أن يسيء بشكل غادر لصديقه، أي أن يتصرَّف بشكل مختلف عن غوغول، كونه رفيق سفره. هو أيضاً (عبس واحمرَّ وجهه بانفعال)، ولم يُظهر جواز سفره. تلا ذلك جدل. لقد وصل إلى أسماع ركاب العربة إساءات شديدة

وسامَّة، جرى نطقها باللغة المحلية. عندما تغيَّرت اللغة فجأة، تغيَّر صوت الرجل الذي كان يشتم أيضاً. سُمِعَت أصوات لغة غريبة تماماً في هواء قرية جبال الألب. كان غوغول يتحدَّث باللغة الروسية. وعلاوة على ذلك، فقد تحدَّث بسلاسة وعاطفية وبنبرة لطيفة ودافئة، كما يتحدَّث شاب صغير يتفوَّه بأكثر الاعتذارات حنيَّة لحبيبته. لكن غوغول، بالطبع، لم يعتذر. نظر بعينين واضحتين وهادئتين مباشرة إلى عيني الشرطي، واستمر «يشتم بأقذع الكلمات»، كما يشهد بوغودين، وبَّخ أولاً الشرطي نفسه، ثمَّ «الإمبراطور النمساوي وحكومته»، ثمَّ جميع السلطات العليا في البلدان المحيطة، بما في ذلك السلطات (العسكرية والقضائية) في إيطاليا المفضَّلة. طغى على الشرطي شعور متناقض. كان مرتبكاً ومنبهراً، على حدٍّ سواء، بموسيقا الكلمات المتواصلة التي سمع فيها بالتحديد اعتذاراً لطيفاً. لقد صُعق بمثل هذا التغيُّر الحاد وغير المعقول في الشخص، ولم يصدر عنه سوى صوت هادئ، مرتبك في بعض الأحيان، ولم يخاطب أحداً بشكل مخصوص: «أيها السادة... أطلب... جوازات السفر...». أمّا غوغول فتراجع آنذاك، دون أن يتوقَّف عن الكلام للحظة، إلى العربة، وأرسل زملاءه المسافرين معه

إلى هناك، وهو يلوِّح لهم بيده خلف ظهره خفية. ثمَّ قفز إلى العربة، وأعلن للمرافق أنَّه يمكن الانطلاق وتحرَّكت العربة، وسرعان ما اختفت من القرية، فقد كان الموظف المحبط، الواقف على الطريق، لا يزال يهمس: «أيها السادة... جوازات السفر...»

سيكون من الخطأ استنتاج أنَّ غوغول أحبَّ جواز سفره بشدَّة، لدرجة أنَّه لا يرغب أن يتركه من يده. على الرغم من أن كلمات بوغودين تقود إلى هذه الفكرة، إذ أكَّد أنَّ «غوغول لم يرغب أبداً، ولا من أجل أي شيء في العالم، إظهار جواز سفره لأي شخص، وكان من الصعب عليه جدّاً أن يخرجه من جيبه. إذ أكَّد لي أنه عندما يسافر بمفرده، لا يُظهر جواز سفره لأي شخص في جميع أنحاء أوروبا بذرائع مختلفة». هو كذلك. ولكن كانت هناك حالات سارت فيها الأمور بشكل مختلف تماماً. ويشهد بوغودين نفسه على هذه الحالات. فحسب مذكَّراته فإنَّ غوغول تصرَّف بالطريقة الموصوفة أعلاه، عندما كان من السهل جداً إبراز جواز السفر. يكتب بوغودين: «الآن تخيَّل أنَّ ليس لديه جواز سفر، أو أنَّه قد وضعه في مكان ما في حقيبة، في كتاب، في جيب. يجب عليه، أخيراً، البحث عنه، لأننا نبدأ بمطالبته: يجب أن نسافر، ولن يسمحوا لنا. يبدأ بالغضب، والبحث، لا يعثر

عليه في أيِّ مكان، ويرمي كلَّ ما هو في متناول يده، وأخيراً، يجده، إذ لا يمكن توقُّع وجود أيَّ ورقة، ويبدأ في شتم جواز السفر نفسه، ولماذا حشر نفسه هناك، ويصرخ بالشرطي: خذ جواز السفر، كُلْهُ!»

ثم بعد ذلك حدث شيء لا يصدَّق. فبمجرَّد أن يأخذ الشرطي جواز السفر بين يديه، يخفي غوغول يديه خلف ظهره، ويبدو كأنَّه لا يريد استعادة جواز السفر من أجل أيِّ شيء في العالم. لقد رفض ذلك بغضب شديد وإصرار كما كان يبدو، لدرجة أنه كان من الممكن أن يكون مسروراً جداً لو قام الشرطي في الواقع بوضعه في فمه ومضغه هذا الوغد وأكله.

لم يكن القيصر نيكولاي الأوَّل - الذي بدأ غوغول يكتب إليه، في دقيقة معيَّنة من كانون الأوَّل عام ١٨٤٦، رسالة حول جواز السفر - [السفر - يصرف] يعرف شيئاً عن هذه العلاقات المتغيِّرة، والشغوفة، وغير المفهومة بين غوغول وجواز السفر. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوم به القيصر هو أن يسأل وزير القصر الكونت فلاديمير أدليربيرغ أو وزير الخارجية كارل نيسلرودي، هل لدى غوغول جواز سفر؟.

من الواضح أن غوغول نفسه كان يعلم ذلك. لكن في تلك اللحظة ظهر جواز سفر مختلف تماماً في مخيلته التي لا يمكن ترويضها،

والتي استيقظت فجأة من النوم واكتسبت، مثل العملاق الجريح، قدرة مضاعفة على تحريك أيَّ كتلة ضخمة. لقد كان جواز سفر غير عادي وضخماً، ليس في الحجم، ولكن في القوة التي يحتويها. كان جواز سفر يطغى على كل جوازات العالم!

لم تكن هناك صعوبة لدى غوغول بإرسال الرسالة. على أيِّ حال، كانت قصيرة جداً ومترابطة، فقد أنهى غوغول بسرعة، في جملتين، المقدِّمة، ولم يعد يخفي نيرانه، فكتب:

«أتجرأ على أن أطلب من جلالتكم الإمبراطورية إعطائي بأمركم الأعلى جواز سفر لمدَّة عام ونصف، خاصّاً وغير عادي، حيث تنحني جميع السلطات ورؤساء الشرق أمام اسمكم العظيم، لمنحي الرعاية في كل تلك الأماكن التي سأمر فيها».

أعرب غوغول في السطور الأخيرة، وبشاعرية على الطريقة الشرقية، وببراعة شرقية، عن أمله في أن يظهر جواز السفر هذا بإرادة القيصر على أرض الواقع:

«يقول لي صوت سرّي حازم إنني سأكون مديناً لكم، يا قيصري فاعل الخير، والمنقذ الرحيم لحياتي التي قاربت على النهاية!

مواطنكم المخلص لكم الذي تجمعه بكم رابطتان مزدوجتان، التبجيل الشرعي والامتنان الأبدي، من القلب نيكولاي غوغول».

تلقّى القيصر، في أوائل كانون الثاني عام ١٨٤٧، الرسالة. درسها لفترة طويلة وباهتمام مركَّز، كان يرفع حاجبيه بين الحين والآخر، وقرأها نيسلرودي وأدليربيرغ وأعادا قراءتها عدَّة مرات. جرى تكليف أدليربيرغ بالرد عليها، والذي كانت مهارته ودقته في الأمور ذات الطبيعة غير العادية دائماً موضع تقدير كبير من قبل القيصر.

لم يسمِّ وزير القصر الجواز بالغريب، ولم يسمِّه بالمذهل وغير الواقعي، ولم يقل إن مثل هذا الجواز الخيالي، كما رسمه غوغول، لا وجود له ولم يكن موجوداً في وقت من الأوقات في الطبيعة... إلّا أن الله وحده يعلم ما قاله القيصر والوزراء فيما بينهم، عندما ناقشوا طبيعة هذا الجواز. لكن الرد الذي صاغه أدليربيرغ، في سلسلة من الكلمات المهذبة، مع بعض التجهُّم القوي، الذي يصعب إخفاؤه، كان على النحو التالي:

«تكرَّم صاحب الجلالة بإعطائي أمراً عالياً: إخطاركم، أيها السيد المحترم، أن جوازات السفر غير العادية، مثل الذي تطلبه، لم تُعْطَ عندنا في وقت من الأوقات لأيٍّ كان».

نعم، لم يَجْرِ على صعيد الواقع تحقيق هذا الخيال المحلَّق. لم يكن للقيصر الروسي ووزرائه قدرات الآلهة... لكن ماذا لو حدث ذلك؟ أو بعبارة أخرى: إذا كان جواز السفر هذا، الذي تخيَّله غوغول تحت سماء نابولي، لا يزال موجوداً في الطبيعة المتعدِّدة الأوجه للدولة الروسية، إذ يوجد مكان لكلِّ الظواهر، بما في ذلك الساحرة تماماً. كيف كان من الممكن أن يتعامل غوغول مع هذا التجسيد لخياله؟ هل سيفخر باستلام جواز السفر هذا الذي ظهر في الواقع بفضل الحدث الأدبي الرفيع ؟ هل كان سيتباهى بجواز السفر هذا على الطرق في العالم، ويظهره بسرور خبيث أمام جميع أنواع الموظفين والجمارك والشرطة، وحتّى أولئك الذين لا يطلبون جواز سفر أبداً؟...

من الواضح أن هذه الأسئلة تفترض أن لدى الفنان غروراً تافهاً. من الواضح أيضاً أنَّ مثل هذا الافتراض غير صحيح في حالة غوغول. لأنَّه، أولاً، من يستطيع أن يضمن أن غوغول لن يتعامل، شيئاً فشيئاً، مع جواز السفر الجديد بالضبط، كما هو الحال مع جوازات السفر السابقة؟ وثانياً، لا يمكن التأكيد على وجه اليقين بأنَّ شكل الجواز العظيم، الذي تهيأ له في نابولي، في منزل الكونتيسة أبراكسينا، يعود حصراً إلى خيال غوغول، ومن ثمَّ إلى فخر غوغول.

ربما تعود هذه الصورة للاوعي الجماعي كعنصر بنيوي يونغي[1]. أو حتّى كنموذج أولي لجميع جوازات السفر في العالم - الجنَّة الأفلاطونية.

غوغول والجنة

لم تكتسب المدينة الأبدية خصائص الجنَّة فجأة لدى غوغول. حين رأى روما أوَّلَ مرَّة، بدت له المدينة صغيرة وريفية بشكل لم يتوقعه. في البداية، لم يستطع غوغول حتّى «أن يقدِّم لنفسه وصفاً واضحاً» لانطباعاته. ما هذا؟ أين هي روما العظيمة والباهرة بشكل رهيب؟ أين آثار قوتها المشعَّة؟... شوارع ضيقة ومظلمة، الثياب البالية تتدلّى على المناشر، رهبان يمتطون الحمير، عربات متهالكة، والماعز يتجوَّل بأنحاء المدينة، يأكل أوراق الشجيرات التي نمت هنا وهناك مباشرة من جدران المنازل المتداعية. تبدو في كلِّ مكان علامات الحياة اليومية التافهة.

على أيِّ حال، إيطاليا نفسها، التي رآها غوغول أوَّلَ مرَّة في أوائل ربيع عام ١٨٣٧ في طريقه إلى روما، لم تَعِدْ روحه بأيِّ شيء من الجنَّة والسماء، لا شيء هناك لم تعرفه روحه في الحياة الأرضية. «ماذا يمكنني

---

(١) كارل غوستاف يونغ، عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي. تستند نظريته من العصاب على الفرضية النفسية الذاتية للتنظيم الذي يتألف من التوترات بين المواقف المتعارضة من الأنا واللاوعي. (المترجم).

أن أخبرك عن إيطاليا بشكل عام؟ - كتب إلى ألكسندر دانيليفسكي - يبدو لي أنَّني زرت أحد الملّاك القدامى في روسيا الصغرى. الأبواب المتهالكة للبيوت نفسها، مع العديد من الفتحات غير المفيدة، والتي تُلطِّخ الثياب بالكلس، والشمعدانات القديمة والمصابيح الأيقونية وفق الطراز الكنسي. ألوان الطعام كلّها مميَّزة، وكلّها قديمة. رأيت سابقاً وفي كل مكان ذهبت إليه صورة للتغيُّرات. هنا توقَّف كل شيء في مكان واحد، لا يمضي إلى أبعد من ذلك».

وصل غوغول إلى روما في ٢٦ آذار عام ١٨٣٧ عشيَّة عيد الفصح. استأجر شقة في Via Isidoro,17، بالقرب من ساحة بربريني. كان ذلك على مسافة عدَّة دقائق سيراً على الأقدام من منزل رقم ١٢٦ في Via Felice، بالحرف الشارع السعيد، حيث كان الطابق الثالث العلوي مملوكاً «لرجل عجوز جاف أحمر الخدين» يُدعى تشيلي. في هذا المنزل، بالتحديد في طابق العجوز تشيلي، كان مقدَّراً لغوغول أن يجد عنواناً دائماً داخل «المكان البعيد الجميل الرائع»، أو، كما كان يمكن أن يقوله الشعراء، «مدكارد الرائعة»[1] - منطقة من العالم مشرقة ومنظَّمة، طَهَّرتها الآلهة من العمالقة والأقزام والشياطين من أجل الإقامة السعيدة للناس.

(١) مدكارد أو ميدغارد: المكان الأوسط وتسمى أيضاً ماناهيم أو مسكن البشر في الميثولوجيا النوردية وقد خلقت من جسد أول مخلوق في الكون بل هو الكون بنفسه. (المترجم).

ومع ذلك، خلال زيارته الأولى لروما آنذاك، لم يفكِّر غوغول في أيِّ عنوان دائم في المدينة الخالدة. سرعان ما اكتشف المدينة بدقَّة، ووجد فيها كلَّ ما يتوقعه أي أجنبي باحث يطلب الروعة والعظمة من روما. لقد مشى في الفوروم الروماني[1] (الميدان الذي يقع في مركز مدينة روما القديمة)، بطوله وعرضه، ثمَّ توقَّف بين الحين والآخر ورأسه مرفوع أمام قوس سيبتيموس سيفيروس، ومبنى الكوريا[2]

وأعمدة معبد زحل، وتجوَّل وهو يفكر، مندهشاً، بحمّامات كركلا[3]،التي لا حدود لها، أعجب بجميع جهات الكولوسيوم[4]،

---

(١) الفوروم الروماني: ميدانٌ عامٌّ مستطيل الشكل كان يقع في مركز مدينة روما القديمة، وكان مركزاً للعديد من الأبنية الحكومية الرومانية المهمة آنذاك. (المترجم).

(٢) الكوريا: مبنى مجلس الشيوخ، وكان يطلق عليه الكوريا، ويعود تاريخه إلى ما قبل الجمهورية، وكان جزءاً من الفوروم. (المترجم).

(٣) كركلا: أشهر الحمامات العامة الرومانية، وتعود إلى ٢١٢–٢١٦ م، عهد الإمبراطور كركلا السوري الأصل وهو ابن الإمبراطورة السورية جوليا دومنا. والحمامات من تصميم المهندس السوري أبولودور الدمشقي. (المترجم).

(٤) الكولوسيوم: مدرج روماني عملاق وسط مدينة روما وهو مبنى بيضاوي ضخم يبلغ طوله ١٨٩ متراً، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول فيما بين عامي ٧٠ و ٧٢ ميلادي. (المترجم).

الذي يغطي نصف السماء، وجد بانثيون أغريبا العظيم متشابكاً في متاهة من الشوارع الضيقة، وصعد ومعه منظار إلى مبنى الكابيتول[1]، وارتدى حذاءً طويلاً مريحاً وتسلَّق أنقاض القصور الإمبراطورية على هضبة بالاتين. لم تعد روما تبدو صغيرة بالنسبة لغوغول: «...كلما طال الوقت، بدت لي أكبر وأكبر». كتب إلى دانيليفسكي: «المباني أضخم، والمناظر أكثر جمالاً، والسماء أفضل، أمّا اللوحات والآثار والتحف فالحياة كلّها لا تكفي لمشاهدتها». وبدت له كاتدرائية القديس بطرس، حيث كان غوغول يستمع إلى قداس عيد الفصح، بكل بساطة «بلا حدود».

كانت تلك انطباعات قويَّة، لكنَّها كانت متوقعة بل حتّى حتميَّة. لم تثر المساحة الأرضية التي احتلتها روما، حتّى ذلك الوقت، أيّ إحساس غير عادي عند غوغول، لكن «نجوم الليل» وحدها أدهشته بشكل خاص. لاحظ غوغول أنَّها تضيء فوق روما بشكل مختلف عن أيِّ مكان آخر: «إنَّها تتألَّق بإشعاع غير عادي»، هكذا أبلغ دانيليفسكي. ربما أراد أن يعبِّر بهذه الكلمات، بشكل شاعري خالص فقط.

---

(١) الكابيتول: أول مبنى ديني، يحمل اسم التل نفسه الذي بني عليه، وهو أشهر وأعلى تلال روما السبع. (المترجم).

في حزيران عام ١٨٣٧، غادر غوغول روما بهدوء، دون ندم وحزن، افترق عنها دون خوف. غادر روما وسافر إلى أوروبا وراء جبال الألب. تنقَّل خلال عدَّة أشهر من مدينة إلى مدينة ومن دولة إلى أخرى. عاش في بادن حيث كان يتعالج بالمياه، ثمَّ في جنيف، وزار الأصدقاء في فرانكفورت وستراسبورغ.

متغذيّاً على الانطباعات الجديدة، لم يكد يتذكَّر روما - لم يحتفظ بها في قلبه، ولكن أبلغ والدته بشكل جاف، في سياق الحديث، أنَّه من المحتمل أن يسافر إلى إيطاليا، إلى روما، مرَّة أخرى - ربما في آب، أو ربما في أيلول أو في تشرين الأوَّل باختصار، عندما سيجد ذلك ضرورياً.

ومع ذلك، في بداية أيلول، في جنيف، لسبب ما زال غير واضح، شعر فجأة أنَّه مضطر للسفر إلى روما على الفور، كان عليه أن يهرع إلى هناك في تلك اللحظة بالذات! لكن الأمر كان مستحيلاً في ذلك الوقت بالذات، فقد تفشّى وباء الكوليرا في إيطاليا، وجرى إغلاق جميع الطرق المؤديَّة إلى شبه جزيرة ابينين[١] بسبب الحجر الصحي. استولى اليأس على غوغول. شعر أنه أسير عاجز ومحكوم ومنفي في

(١) شبه الجزيرة الإيطالية، والمعروفة أيضاً باسم شبه جزيرة مائل أو شبه جزيرة ابيناين، كمصطلحات مترادفة. (المترجم).

وسط أوروبا. بدا كل شيء من حوله مثيراً للإحباط. لم تعد سويسرا وألمانيا، اللتان كانتا، حتّى وقت قريب، تثيران الدهشة فيه، تحركان فيه الآن إلا الحزن والاشمئزاز: «بدتا لي بكل جبالهما ومناظرهما منخفضتين، مبتذلتين، قبيحتين، رماديتين، باردتين». كان من الصعب عليه أن يستنشق حتّى هواء جنيف ذاته، والتي لم تعد تبدو له الآن جنيف على الإطلاق. وتذكَّر فيما بعد أنه تخيَّل أنَّه موجود «في مقاطعة أولونتس» ويسمع «أنفاس المحيط الشمالي الثقيلة».

في منتصف تشرين الأوَّل عام ١٨٣٧، بمجرَّد أن رُفِعَ الحجر الصحي عن طرق جبال الألب، أخذ غوغول طريقه إلى هناك.

بعد أيام قليلة دخل إيطاليا. وفي هذه الزيارة الثانية، وبعدما وجد نفسه ضمن حدودها، اكتشف في روحه شيئاً كان أكثر من إعجاب حتمي بالمناظر الجميلة، وأكثر من مجرَّد شعر خالص. لقد كتب إلى جوكوفسكي: «أخيراً تحرَّرت». «لو تعرف فقط مدى سعادتي بمغادرة سويسرا، لقد أسرعت إلى روحي، إلى جميلتي إيطاليا. إنَّها لي! لا أحد في العالم يستطيع أن يأخذها مني! لقد ولدت هنا. روسيا وبطرسبرغ والثلوج والأوغاد والبيروقراطية والقسم والمسرح، كل ذلك كان حلماً. لقد استيقظت مرَّة أخرى في وطني...»

بحلول نهاية تشرين الأوَّل، وصل غوغول، قادماً من ميلانو وفلورنسا، إلى روما. المدينة التي رآها للمرَّة الثانية لم تذهله «بروعتها الباهرة» فحسب، لقد أوصلته إلى حالة من السعادة المشرقة والهادئة والدائمة، التي وعدت بها الكتابات المقدَّسة في الغرب والشرق الأرواح الطاهرة خارج الوجود الأرضي فقط - في وطنها الحقيقي. بهذا الشكل - الميتافيزيقي - تحديداً فسَّر غوغول الوطن في رسالة إلى جوكوفسكي، كما يتضح من رسالته الأخرى، التي أرسلها من روما إلى تلميذته في سانت بطرسبرغ ماريا بالابينا في نيسان عام ١٨٣٨، والتي أرخها عام ٢٥٨٨م من تاريخ تأسيس مدينة روما. كتب لها «عندما رأيت روما أخيراً للمرَّة الثانية، آه، إلى أي حدٍّ بدت لي أفضل من ذي قبل! تهيأ لي أنَّني رأيت وطني، الذي لم أكن فيه منذ عدَّة سنوات، والذي كانت تعيش فيه أفكاري فقط. لكن لا، كل هذا ليس كذلك، إنَّها ليست وطني، بل هي وطن روحي، رأيت المكان الذي عاشت فيه روحي قبلي، قبل أن أولد في هذا العالم».

في روما، لم يجد أيّاً من أولئك الرفاق - مواطني بلده الذين استطلع معهم المدينة خلال زيارته الماضية لها. ولم يكن ليحتاج أحداً الآن. استقر في Via Felice (الآن Via Sistina) عند تشيلي،

وحصل هنا على عنوان روماني ثابت. منذ ذلك الوقت، بدأ يتحدَّث بإصرار، في جميع رسائله، عن روما وإيطاليا - مدينتي وبلدي. وبدأ يشعر بالغيرة على روما من أيِّ زائر أجنبي، ولا سيَّما الروس، الذين التقى بهم في المدينة على أبواب عيد الفصح، كما عبَّر بغضب، «عصابات كاملة». لم يستطع تحمُّل غطرستهم وحديثهم الغاضب عن شوارع روما غير النظيفة، وعن تدهورها المثير للشفقة، وعن قلَّة الترفيه فيها، وعن عدم نظافة الرهبان الذين يتجوَّلون في المدينة في حشود غير لائقة مثل الماشية، وعن أن جميع الإيطاليين أوغاد ومخادعون. ولكن الأمر الذي لم يطق تحمله أكثر من أيِّ شيء آخر كان أولئك القرويين الذين سمحوا لأنفسهم الإعجاب بروما، فقط روما، كمدينة حجرية في جنوب أوروبا، وإن كانت قديمة، وإن كانت غير عادية، حتّى لو أثَّرت في مصير الحضارة الأوروبية، ومع ذلك هي تلك المدينة التي يمكنك الذهاب إليها وقتما تشاء، حتّى في يوم الأحد المشرق، لتحدِّق في مواكب عيد الفصح، وفي بابا روما بكنيسة القديس بطرس، وفي اللحى الغريبة للنحاتين الألمان الذين يتجوَّلون بقبعات ضخمة ذات حوافٍ متدلية في ساحة Piazza di Spagna، والوقوف في حالة حلم خيالي بين الرسامين في

قمصان مخملية والذين يرصدون غروب الشمس على تل أفنتين، وتناول المعكرونة مع الصلصة العطرية في المطاعم الصاخبة في Via del Corso، والركوب إلى مدينة ألبانو في كامبانيا[1] روما بعربة فيتورينو (الحوذي) الثرثار، والمغادرة بأمان في أي وقت، حتّى خلال الأسبوع الذي يعقب عيد الفصح. لا وجود، لمثل هكذا روما، أو، من الأفضل القول، إن روما بهذا الشكل لم تعد موجودة بالنسبة لغوغول. لقد تحوَّلت مدينة روما ودولة إيطاليا بالنسبة له إلى شيء آخر، الأمر الذي تحدَّث عنه في رسائله إلى الأصدقاء، إمّا بخشوع ديني، وإمّا بتوق عاطفي، إمّا بإلهام صلاة.

«آه روما، روما! ليس هناك غير روما، لا توجد روما أخرى في العالم، أردت أن أقول، هي السعادة والفرح، لكن روما أكثر من السعادة والفرح،» كرَّر لشيفريف.

«روما! روما الجميلة! هل تتذكَّرها؟ ساحة Piazza di Spagna القائظة وأشجار السرو والصنوبر وبطرس وبلوط تاسّا...» - كتب لدانيليفسكي.

---

(١) كامبانيا: أحد الأقاليم العشرين المكونة لإيطاليا يقع في جنوب البلاد ويضم العاصمة روما. (المترجم).

«إيطاليا، الجميلة، إيطاليا الحبيبة أطالت حياتي...» - أوضح للأمير فيازيمسكي.

بعد نصف عام من زيارته الثانية لروما، تحدَّث غوغول بوضوح عن الجنَّة.

«لم أشعر في وقت من الأوقات أنّني غارق في مثل هذا النعيم الهادئ. آه روما، روما! آه إيطاليا! أيُّ يد ستقتلعني من هنا؟ أيُّ سماء! أيُّ أيام! الصيف ليس صيفاً، والربيع ليس ربيعاً، ولكنَّه أفضل من الربيع والصيف، اللذين يوجدان في أجزاء أخرى من العالم. يا له من هواء! أشرب فلا أرتوي، أنظر فلا أشبع بما يكفي. في روحي السماء والجنة» هكذا كتب في ٢ شباط عام ١٨٣٨ من روما إلى ألكسندر دانيليفسكي. وبهذه الكلمات - السماء والجنة - لم يكن يتصنَّع.

في الواقع أصبحت روما، في وقت من الأوقات، تؤثِّر في مشاعر غوغول بطريقة شعر بنفسه أنَّه كان ميِّتاً في جميع «أركان العالم الأخرى» وبُعِثَ من الموت إلى الجنَّة، التي أخذت شكل مدينة روما. تحوَّلت روما أخيراً عند غوغول إلى مدينة من الجنَّة، إلى القدس السماوية، إلى كولابا، إلى دار السلام، وبكلمة أخرى، إلى مدينة بلا حزن ولا زمن ولا موت. في روما هذه الأبديَّة حقاً - من

الأصح تسميتها روما السماوية - عاش غوغول آنذاك في الشارع السعيد. لقد خضع تصوُّر الواقع نفسه هنا لدى غوغول لمثل هذه التغيّرات التي جعلت هذا التصوُّر مشرقاً إلى أعلى درجة ومبهجاً باستمرار، مناسباً فقط لساكني الجنَّة الذين يعيشون بأمان. اكتسب غوغول داخل روما قدرات لا يمكن الوصول إليها في أيِّ جزء آخر من الفضاء الأرضي. تقول صديقته وصيفة البلاط ألكسندرا سميرنوفا، في مذكراتها عن سيرته الذاتية: «لقد أخبرني بنفسه، أنَّه في روما، في الوقت نفسه كان يمكن أن يرى كلَّ شيء حزيناً وكئيباً، ولا يشعر بتوق وإنهاك». لكنه وعن الشيء نفسه، عن الجنة السماوية التي أهداها له الله في روما المحصَّنة ضد العذاب والمشاعر المؤلمة، كتب إلى ماريا بالابينا بصيغة الغائب في أيلول عام ١٨٣٩: «هل يمكنك فهم تلك الاتهامات الرهيبة، تلك العذابات الجهنمية التي لا تطاق والتي يسمعها داخله. الآن، تخيلي هذا الإنسان، لا أدري لماذا أشفقت عليه رحمة الله العظيمة وألقت به (لماذا- حقاً، أنا لا أفهم، لم يفعل أي شيء يستحق)، وألقته في بلد، في الجنَّة، إذ لا تعذبه الاتهامات التي لا تطاق، حيث عانقت روحه الهدوء النقي كالسماء التي تحيط به الآن...»

كانت السماء في روما السماوية في كل مكان. كانت فوق غوغول وحول غوغول. وكانت السماء في غوغول، وكان غوغول في السماء. وقد حملت السماء نسيان العذاب. هذا النسيان الذي لا يمكن أن تمنحه للروح إلا المدينة الجنَّة. ناقش في إحدى رسائله إلى دانيليفسكي، «حقاً من الغريب، يبدو أنَّك لا تعيش، لكنك فقط تنسى نفسك أو تحاول أن تنسى نفسك: نسيان المعاناة، نسيان الماضي، نسيان سنواتك وشبابك، نسيان ذكرياتك، نسيان حياتك الحالية المبتذلة! ولكن إذا كان هناك مكان ما في العالم يمكن أن تنسى فيه المعاناة والحزن والخسارة والعجز الشخصي، فهذا المكان واحد هو روما وحدها. هنا فقط الهموم ليس لها قوَّة ولا تمس الروح».

هذه الصفات حسب غوغول تمتلكها مدينته روما السماوية. هناك كان لديه كل شيء: السعادة، والإلهام، والهدوء، والنسيان، وحارسه الموثوق، ورسوله بطرس - الرجل العجوز المطيع تشيلي، الذي علَّمه غوغول أن يكذب على الجميع وفي جميع الأوقات، بأنّ غوغول ليس في المنزل - كان هناك «نعيم حقيقي كامل»، تحدَّث عنه ميستر إيكهارت في عظاته الروحية، مدَّعياً أنه سيظهر «في نهاية هذه الحياة، عندما نتحرَّر من الجسد».

لم يكن غوغول الآن قادراً على مغادرة روما في أي وقت، فلمجرَّد التفكير في أن عليه مغادرة روما وإيطاليا، كان يصاب باليأس. بالنسبة إليه، كان الأمر بمنزلة

الانتقال من السماء إلى الأرض أو من (ميدغارد) المشرق إلى (أوتغارد) الكئيب[1]، إلى حيث «الثلوج، والأوغاد، والبيروقراطية»، والأقزام، والشياطين، وما إلى ذلك. اشتكى إلى ماريا بالابينا، عندما توجَّه للسفر إلى ألمانيا: «لن تصدقي كم هو محزن أن أترك روما وسمائي الصافية، والنظيفة، وأرضي الجميلة والحبيبة لمدة شهر واحد». بدت الرحلة إلى روسيا مستحيلة تماماً بالنسبة لغوغول. ليس لأن هناك المزيد من الثلوج في روسيا، والبيروقراطية الشيطانية أكثر وضوحاً، ولكن لأن جنَّة روما المباركة قد تبدو خيالية بالمطلق من أعماق فضائها الجليدي، إذ «حتّى لو سافرت لمدَّة ثلاث سنوات، فلن تصل إلى أيِّ دولة»، كما يقول عمدة المدينة في «المفتش

(١) كان الفايكنز يرون أن العالم المأهول هو أشبه بجزيرة تهددها باستمرار مخاطر خارجية. وكانوا يسمون هذا الجزء المأهول (ميدغارد)، ومعناها إمبراطورية الوسط . وكان (ميدغارد) يضم (اسفارد) أي مقر الآلهة. وعلى أطراف (ميدغارد) تأتي (أوتغارد) أي الإمبراطورية التي تقع خارجها. وفيها يسكن الجبابرة الخرافيون الخطرون الذين يحاولون بحيل ماكرة تدمير العالم. (المترجم).

العام». في رسالة إلى شيفيريف ١٠ أيلول عام ١٨٣٩ أصيب غوغول بالرعب والدهشة «هل من المعقول أنا مسافر إلى روسيا؟ أنا لا أكاد أصدق ذلك. أنا خائف على صحتي. أنا الآن أصبحت غير معتاد تماماً البرد: كيف سأتحمَّل؟» لكنه لم يعد معتاداً الأرض، وكان خائفاً أيضاً من عدم العودة إلى الجنَّة. ولذلك، أخَّر وأجَّل بكل الطرق الممكنة هذه الرحلة الأولى من روما إلى روسيا، إذ كان أقاربه وأصدقاؤه لا يكفون عن دعوته إلى القدوم لحلِّ الأمور الأسرية وقضايا النشر والأملاك. كان غوغول يتهرَّب قدر ما يستطيع. كان يبعث الخوف بين المقربين- ولاسيما والدته وأخواته- من اعتلال صحته، متحدثاً أنَّه في إيطاليا فقط تزول عنه جميع الأمراض، وكان يتوسَّل إلى أولئك البعيدين- الناشرين والصحفيين- أن يرحموا موهبته، مؤكِّداً أنه لا يستطيع أن يكتب عن روسيا إلا في روما. كلاهما كان صحيحاً.

بكل الأحوال كان ذلك صحيحاً، لقد سمع غوغول، بعد وصوله إلى موسكو في نهاية أيلول عام ١٨٣٩، من جديد داخله كل «عذاب الجحيم الذي لا يطاق» الذي نسيته روحه. أولئك الذين رأوه في روما- لم يتعرَّفوا عليه في روسيا. رأوا فيه الغريب، المكتئب، المنعزل، المتقلِّب، الذي يرتدي ملابس داكنة، محاولين أن يجدوا فيه

تشابهاً مع ذاك signore Nicolo الروماني السماوي، الذي كان يرتدي قبعة بيضاء واسعة الحواف، وقفازات بيضاء، ومعطفاً أبيض أنيقاً فوق صدرية مخملية

زرقاء، والذي كان مبتهجاً، فرحاً، ومرحاً، ورشيقاً، والذي يسرع في شمس الصباح إلى مقهى Greco في شارع Via Condotti، كان ينحدر برشاقة من كنيسة الثالوث على الدرجات الإسبانية، محركاً في الهواء عصاه المتلألئة، والذي، من أجل تسلية رفاقه، يبدأ فجأة بالرقص وغناء أغاني روسيا الصغرى في أزقة روما النائمة، والذي كان يقدِّم لأصدقائه البرتقال أثناء التجوال، ويدخل عن طيب خاطر في فضائح مشاغبة مع الباعة الجوالين... لكنهم لم يعثروا على أوجه شبه. لم يستطع غوغول أن يجد مكاناً لنفسه، كان يفكر في شيء واحد فقط، في العودة. كتب بسريَّة تامَّة إلى ناشر «المعاصر» بيوتر بليتنيف «أنا في موسكو. حالياً، لا تخبر أيَّ شخص عن هذا. أشعر بالحزن، لم أكن أرغب في ذلك أبداً! لكن الواجب والالتزام الأخير: أخواتي. يجب ترتيب مصيرهن، من دوني (كيفما قلَّبت هذه القضية) لم أجد أيَّ وسيلة. أنا عدت فقط مُدَّة قصيرة جداً، وبمجرَّد أن أرتب كل شيء، لن أنظر إلى أيِّ عقبات، ولا إلى الوقت، وبعد شهر ونصف أو شهرين سأكون في الطريق إلى روما».

لم يعد قادراً على الاستغناء عن روما- حتّى وإن كان خارج روما- وهو يعتبر، بالمناسبة، أن روما يجب أن تمتلك للجميع خصائص الجنّة نفسها التي تكشَّفت له. كتب الى بليتنيف راجياً: «اترك كل شيء! ولنذهب إلى روما. آه، لو كنت تعرف أي مأوى هناك للإنسان الذي يعاني قلبه الخسارة. كيف تملأ هناك مساحات الفراغ التي لا يمكن تعويضها في حياتنا! ما أقربها إلى السماء. الله الله! الله! آه مدينتي روما. مدينتي روما الجميلة والرائعة. تعيس ذاك الذي فارقك لمدَّة شهرين، وسعيد ذاك الذي أمضى هذين الشهرين وهو يعود في طريقه إليك».

كان هناك شيء آخر لا يستطيع غوغول الاستغناء عنه، وإن لم يتحدَّث عنه، إنَّ صورة جنَّة غوغول لن تكون ناقصة فحسب، بل إنَّها خاطئة ببساطة بدونه. إنَّه الطريق! كان لها التأثير الرائع نفسه على غوغول كما فعلت روما.

من المعروف أن أكثر أعمال الإلهام رقَّةً وسحراً هي المرتبطة بولادة الفكرة التي كانت تظهر عند غوغول غالباً خلال السفر، وفقاً لاعترافه لشيفيريف، كان "يحبك قصصه كلَّها في الطريق. لكن الطريق كانت تنقذه أيضاً من كل عذاباته النفسية، وتشفيه من كل

أمراضه، وتوقظه من «نومه العصبي»، وتمنحه الهدوء والسعادة. وفي هذا كانت تنافس روما بنجاح.

كانت رسائله مليئة بالآمال على طرق السفر، والكآبة من أجل السفر، والصلاة إلى الله بأن يمنحه السفر. في بعض الأحيان وصل عطش غوغول للسفر إلى النقطة التي تلاشت فيها روما الجنَّة نفسها في عينيه! كان هذا هو الحال، على سبيل المثال، في تشرين الأوَّل عام ١٨٤٠، عندما كتب من روما إلى بوغودين: «لا روما ولا السماء ولا تلك التي من شأنها أن تسحرني، الآن لا شيء له أي تأثير علي. أنا لا أراها، لا أشعر بها. أحتاج إلى طريق الآن، نعم طريق تحت المطر والطين، عبر الغابات، عبر السهوب، إلى نهاية العالم. كان الأمس واليوم سيئين، وفي هذا الوقت السيئ كما لو أنَّني عدت إلى الحياة. لذلك أردت دائماً أن ألقي بنفسي في عربة أو على الأقل التنقل في العربات من محطة إلى أخرى».

كان غوغول غير مبالٍ تماماً إلى أين ستقوده طريقه وكم من الوقت ستمتد. «آه، لو أتيحت لي الفرصة للقيام برحلة طويلة وطويلة على مدار كل الصيف! الطريق تنقذني بشكل مدهش»- كتب إلى سيرغي أكساكوف. وعن الطريق نفسها البعيدة جداً،

تحدَّث إلى بوغودين: «أنا بالتأكيد بحاجة إلى طريق، طريق بعيدة. كيف القيام بذلك؟» لم يكن مبالياً إلّا بشيء واحد فقط: في أي سفر كان يجب أن يعرف أنه ذاهب إلى روما، ليكن حتّى عبر التندرا[1]، عبر كامتشاتكا[2]، ولكن إلى روما، لأنَّه لم يكن هناك شيء أكثر روعة وجمالاً من طريق العودة إلى المدينة الخالدة، أقسم لبليتنيف في رسالة من موسكو بتاريخ ٢٧ أيلول ١٨٣٩.

بعد عام، وصف غوغول عودته إلى روما في رسالة إلى بوغودين، أعرب فيها عن أسفه لأنَّه وجد نفسه في روما بسرعة كبيرة. حدث هذا بعد أن كاد يموت في فيينا. على أيِّ حال، تخيَّل أنَّه كان يحتضر، حتّى إنَّه كتب وصية بالفعل. يكتب «لكن الموت بين الألمان خيِّل إلي مخيفاً»، لقد طلبت أن يضعوني على العربة ويأخذوني إلى إيطاليا. عندما وصلت إلى تريستا، شعرت بتحسُّن. الطريق دوائي الوحيد، كان لها تأثيرها هذه

---

(١) تقع تندرا القطب الشمالي في أقصى نصف الكرة الشمالي، شمال حزام التايغا. ترمز كلمة التندرا غالباً للمناطق حيث الطبقة الترابية السطحية الثانية عبارة عن تربة صقيعية، أو تربة متجمدة دائمة. (المترجم).

(٢) كامتشاتكا أو شبه جزيرة كامشاتكا، هي شبه جزيرة تقع في أقصى شرق روسيا بين بحر أوخوتسك في الغرب والمحيط الهادي وبحر بيرنغ في الشرق وتشتهر بطبيعتها الخلابة. (المترجم).

المرَّة أيضاً. كان يمكنني الآن أن أتحرَّك. كان الهواء ينعشني، على الرغم من أنَّه كان لا يزال في ذلك الوقت غير لطيف وساخناً. آه، كم كنت أرغب في ذلك الوقت بالقيام برحلة ما طويلة. شعرت، وعرفت وأعلم أنَّني سأستعيد عافيتي تماماً حينئذ. لكن لم يكن لدي أيَّ مقدرة على السفر إلى أي مكان. بأي فرحة كنت سأعمل لو كنت ساعي بريد، متنقلاً في العربات الروسية، وحتّى المغامرة إلى كامتشاتكا، كلَّما كان ذلك بعيداً كان أفضل. أقسم إنَّني كنت سأكون بصحة جيدة. ولكن لم يستغرق الطريق إلى روما سوى ثلاثة أيام".

نعم، في روما احتاج غوغول إلى طريق طويلة، وفي الطريق الطويلة كانت هناك حاجة إلى روما. كان بحاجة إلى روما والطريق في الوقت نفسه. وكان في ذلك بعض التناقض المؤلم. ومع ذلك، فإن نعيم الجنَّة لا يسمح بالتناقضات. علاوة على ذلك، فإنَّه لا يتعارض حتّى مع الحياة الأرضية، لأنَّ الجنَّة، كما اكتشف إيمانويل سويدنبورغ الباحث الأكثر صرامة وموضوعية في القضايا السماوية، تحمل صفات شخصية بحتة: ما كانت تميل إليه الروح خلال الحياة، سيكون جنتها بعد الموت.

الآن، أخيراً، يمكننا تقديم وصف دقيق لجنَّة غوغول. إنها تبدو هكذا:

يسافر غوغول بشكل أبدي إلى المدينة الخالدة على طريق لا نهاية لها.

غوغول والهواء

أحبَّ غوغول الهواء. فكَّر فيه كثيراً وكتب عنه. لم يكن الهواء بالنسبة إليه شيئاً غير محسوس، وشفافاً، وعديم اللون، ومتجانساً. في أيِّ تنقُّل يتغيَّر الهواء بالنسبة إلى غوغول بشكل ملحوظ للغاية، كما تتغيَّر المناظر الطبيعية على طول الطريق. ذات مرَّة اشتكى إلى ميخائيل بوغودين من أن الطريق من النمسا إلى إيطاليا لم يكن لها تأثير علاجي عليه. «كان هناك تغيُّر طفيف في الهواء» - كما قال. لم يقل غوغول أبداً إنَّه يتنفَّس الهواء. كان«يشربه»، و«يمتصُّه»، و«يسمعه»، ويشعر بـ «قبلاته الدافئة» على نفسه، ويرى «لمعانه السماوي غير المرئي». ولذلك، فقد شعر بتغيُّرات الهواء بوضوح مثل التغيُّرات في المناظر الطبيعية. كيف؟ بكل شيء: بعينيه، وأذنيه، ولسانه، وجلده، وأنفه. فيما يخصُّ الأنف، بالطبع، يجب الحديث عنه بشكل منفصل.

لم يكن من قبيل المصادفة أن الله وهب غوغول أنفاً حاداً وبارزاً بكل معنى الكلمة. لا يوجد كاتب على وجه الأرض ليس لديه جزء واحد منفصل من وجهه كرمز أكثر تميزاً لمظهره الخارجي. لا

يمكننا - على أي حال، ليس لدينا سبب جاد- أن نتحدَّث بشكل منفصل، على سبيل المثال، عن ذقن بوشكين الصغير المنحدر أو أذني كافكا الكبيرتين والبارزتين كما لدى الصغار.

يمكن - وينبغي - التحدُّث بجديَّة عن أنف غوغول. على الأقل لأنَّ هذا الأنف الشهير- عنيد، وحسّاس جداً، وتلاحظه العين ويخطر في الذهن بمجرَّد ذكر غوغول - هذا الأنف يعبِّر بوضوح عن أهم خاصيَّة لطبيعة غوغول الفيزيائية - وسعيه للحصول على الهواء، حتّى بعض الجشع للهواء، والذي وصل عند غوغول إلى الجنون المرح. لقد كتب في ربيع عام ١٨٣٨ عن هواء روما لماريا بالابينا «يا له من هواء! – يتهيأ لي أنَّه عندما أستنشق، يطير ما لا يقل عن ٧٠٠ ملاك إلى فتحتيه <...> هل تصدِّقي أنَّه غالباً ما تراودني الرغبة الشديدة في التحوُّل إلى أنف فقط، دون أي شيء آخر - لا عيونٍ ولا أيدٍ، ولا أرجلٍ، باستثناء شيء واحد فقط أنف ضخم، تكون له فتحتان بحجم دلوين كبيرتين، بحيث يمكنني سحب أكبر قدر ممكن من روائح العطور والربيع».

من الملاحظ أنَّ التحوُّل العكسي حدث مع أنف الرائد كوفاليف، الذي ظهرت لأنفه عينان وذراعان ورجلان وزي مستشار الدولة.

لكن جوهر التحوُّل هو نفسه - من حيث اكتساب الأنف الاستقلال الوجودي، هذا العضو الرئيس، الذي تذوَّق به غوغول الهواء المتغيِّر للكوكب. هنا ينبغي، بالطبع، أن يقال، إنَّه كان طوع بنانه: «متذوِّقاً الهواءات». لكن غوغول، الذي شعر من أعماقه بالتنوُّع المشرق للهواء، وتجزئته المتنافرة، حصل عليه بحريَّة - دون بذل الكثير من الجهد العقلي المطلوب لإزالة قيود القواعد - لاستخدام صيغة الجمع للهواء، التي تنتمي إلى فئةsingularia tantum . على سبيل المثال، لقد وصف هواء باريس لوصيفة البلاط ألكسندرا سميرنوفا بهذه الطريقة، حين كتب لها عن رحلته إلى هناك في شتاء عام ١٨٤٥: «لكن باريس، أو أفضل هواء باريس، أو أفضل أبخرة هواء سكان باريس، الذين يأتون إلى هنا حيث الهواء، لم يساعدوني كثيراً، وحتّى أيضاً من جديد خربوا كل ما جرى اكتسابه خلال التنقل والسفر...»

لقد وهب مثل هذه الرؤية التي كانت قادرة على تلوين الهواء وتكثيفه حتّى لا يمكن اختراقه، لدرجة الماديّة الواضحة، كان بإمكانه رؤية «التنوُّع المرح الذي يتغيَّر في المنازل والكنائس والقصور» ليس في الهواء، ولكن على الهواء- «في الهواء السماوي الرقيق، متلألئاً مع زرقة غير قابلة للإدراك» («روما»).

بالنسبة إلى غوغول، كان الهواء هو أكثر مادَّة ملموسة في الكون، كما يتضح من حقيقة أنَّه كان يستعمل فيما يخص الهواء فعل «استخدام» بشكل طبيعي خالص، لدرجة أنَّه لا يعطي مجالاً للشعور بغرابة كلامه. في استخدام الهواء، كتب ذات مرَّة إلى والدته، موضحاً لها سبب عدم قدرته الآن على العودة إلى الوطن من إيطاليا: «الهواء اللطيف لهذه الأرض يعمل منقذاً. والاستخدام طويل الأمد له وحده، يمكن أن يخلِّصني تماماً من مرضي».

بغريزة خاصَّة، لم يشعر بالهواء الذي كان حوله فحسب، ولكن بكلِّ هواء العالم، البعيد عنه. لذلك كان قادراً في إحدى المرات على إجراء تشخيص عام لهواء الكواكب. حدث ذلك في ٢ كانون الثاني عام ١٨٤٤. كان غوغول يعيش آنذاك في نيس- «أقام في نيس» كما كتب إلى أصدقائه. اختبأ هناك من سوء الأحوال الجوية، من الأمطار الغزيرة التي لاحقته في ذلك الشتاء في جميع أنحاء أوروبا. في نيس، حيث استقر على الساحل، في ضاحية هادئة، «بإطلالة على ذيل صغير للبحر»، كان الطقس ممتازاً. لم يكن هناك أدنى نسيم في الهواء. كانت الشمس مشرقة من الصباح إلى المساء. في محاولة لعيش «حياة منعزلة

ومكرَّسة للتفكير»، تجنَّب غوغول عمداً اللقاءات الخاصَّة مع معارفه الروس- مع عائلات فيلغورسكي وميشيرسكي وسولوغوب، التي عاشت في نيس. لم يمنح نفسه في كثير من الأحيان رؤية رفيقة روحه سميرنوفا وصيفة البلاط، لأنَّه في نيس كان ينوي العمل بحماس. وكانت هذه النيَّة راسخة لدرجة أنَّه، على حدِّ قوله، كان مستعدَّاً حتّى «لإجبار نفسه على فعل شيء ما». لكن على الرغم من كل الجهود، المدعومة بالطقس الرائع وعزلة التأمُّل، لم يمض العمل إلى الأمام. لم يستطع الكتابة. هناك أمر غامض وغير مفهوم جعله في شوق وحزن، أعاقا «العمل كما يجب».

خرج غوغول في ٢ كانون الثاني، كما هو الحال دائماً، في الصباح الباكر إلى البحر لينظر إليه عن قرب. وقف على الشاطئ. استمع باهتمام، أطل على البعد الصباحي للبحر، وهزَّ جناحي الأنف الرقيقين. وفجأة أدرك ما في الأمر. هواء! حدث شيء ما في ذلك الشتاء لهواء العالم.

عند عودته إلى المنزل، كتب غوغول رسالة قصيرة إلى الشاعر نيكولاي يازيكوف، قال فيها، من بين أمور أخرى:

«أشعر أنَّ عـدم هـدوء الـروح، الممـزوج بتـوق غـير مفهـوم، أصبح الآن مرضاً منتشراً في كلِّ مكان، نتيجة نوع من الحالة المرهقة في الهواء».

باستثناء يازيكوف وغوغول نفسه، الذي سرعان ما غادر نيس، في حالة الكآبة المطلقة نفسها، لم يعرف أحد غيرهما الحالة الحقيقية للأمور في الهواء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغول والجحيم

إنَّه لمن الصعب، حتّى لا أريد أن أعتقد، أن غوغول - في الجحيم.

لكن مع ذلك، نحن مضطرون إلى القول - على الأقل بكلمات قصيرة - ممّا يمكن أن يتكَّون جحيم غوغول. هو أولاً من البرد . ثانياً، من عدم الحركة. وثالثاً من الألمان.

ليست هناك حاجة للحديث بالتفصيل عن خوف غوغول الجنوني من البرد وعدم الحركة (عدم القدرة على السفر، وأن يكون على الطريق). لم يكن هناك شيء أكثر فظاعة بالنسبة لغوغول من البرد، وشقة قاتمة غير مدفَّأة، وثلوج بيضاء ميِّتة وعدم وجود المال الذي كان من المستحيل دونه الاندفاع في أيِّ لحظة إلى الطابق العلوي في العربة (كان يجب أن يأخذ المكان العالي)، أو القفز في عربة خفيفة، أو الجلوس بجوار النافذة في حافلة واسعة، أي، كما قال هو نفسه، «الركوب والسفر». بالمناسبة، اختار غوغول دائماً شقَّة لنفسه بمثل هذه الدقَّة التي لم يقم بها أيُّ كاتب روسي متجوِّل. لقد نظر إلى مسألة استئجار شقَّة كطقس مقدَّس، حيث تتدخل هنا

العناية الإلهية والرب الإله، والقوى الخارقة. فقد كتب إلى جوكوفسكي من باريس: «لقد بسط الله رعايته علي هنا، وحدثت معجزة: أراني شقة دافئة، مشمسة، مع موقد، وأنا سعيد. ومرح من جديد».

أمّا بالنسبة لموقف غوغول من الألمان، فهو معروف جداً أيضاً، ولذلك ليس هناك حاجة للشروع في دراسة مفصَّلة لهذه القضية. ولأيِّ غرض؟ الشرح؟.. والتبرير؟... لا. لا يمكن أن يكون هناك تفسيرات أو أعذار. لقد صبَّ غوغول على الألمان وألمانيا الكثير من السم بشكل غير عادل لدرجة أنَّه لم يكن لأحد أن يعترض فيما لو قال الألمان وألمانيا إنَّ غوغول يستحق الجحيم بسبب سميَّته هذه.

في الواقع، ما هي الشهامة الخيالية التي يجب أن يتمتَّع به الألمان من أجل مسامحة غوغول على هذه الآراء، يقول على سبيل المثال: "بالنسبة لي، ألمانيا ليست أكثر من تجشؤ التبغ الشنيع والبيرة المثيرة للاشمئزاز. أو يشتكي فيقول: «مرَّة أخرى سأرى ألمانيا الحقيرة هذه، المقزِّزة والمتسخة والمدخَّنة بالتبغ...»

على كل حال، إذا قام شخص ما بعمل نبيل (ولكن على الأرجح غير مجدٍ) للتكفير، بطريقة أو بأخرى، عن ذنب غوغول الذي لا شك فيه تجاه الألمان، فيجب على هذا الشخص أن يكون حذراً ولبقاً، وأن

يتحدَّث بصوت منخفض جداً، مدركاً كلَّ تعقيدات حالته، ليتحدَّث بما معناه أن غوغول لم يحب ألمانيا والألمان ليس لأنَّه كان يشعر ببعض العداء الأولي تجاههم إطلاقاً، ولكن لأنَّه وقع فجأة في حبِّ بلد وأمَّة أخرى: إيطاليا والإيطاليين. كتب في عام ١٨٣٨ لماريا بالابينا «كم بدا لي الألمان أنذالاً بعد الإيطاليين، الألمان بكل صدقهم الأجوف وأنانيتهم التافهة!». هنا سيكون من الضروري لفت انتباه الألمان بشكل مهذَّب بعد ذلك إلى هذا الشيء المهم للغاية. «بعد ذلك».

«قبل» لم يحتقر غوغول ألمانيا، هذه الدولة الأولى التي رآها خارج حدود الإمبراطورية الروسية في آب عام ١٨٢٩، بعد أن أبحر على متن باخرة إلى لوبيك، التي درسها بعد ذلك جيداً أثناء تجواله فيها عام ١٨٣٦، ولكنَّه كان حينئذٍ مغرماً بألمانيا ليس أقل من جوكوفسكي. لسنوات عديدة، كان غوغول، كما يتضح من رسائله إلى هذا الشاعر، معجباً بصدق بألمانيا - «حتّى، ربما، بحيويَّة أكبر ممّا كنت عليه عندما دخلت إيطاليا أوَّل مرَّة»، أكد لجوكوفسكي. وهذا ما أكدته أيضاً رسائله المؤرخة ١٨٢٩ و١٨٣٦ إلى والدته وأخواته، حيث كتب غوغول بإعجاب مفعم بالحيويَّة وحبٍّ دافئ، عن الألمان بالذات، الذين كان يسميهم «الألمان

الطيبين»، مندهشاً من «مجاملتهم وحسن معاملتهم»، ويكتب عن مدنهم «الرائعة»- عن هامبورغ، حيث «الحياة ممتعة جداً»، وعن آخن، التي يُعَدُّ منظرها «من الجبل «معجزة»، وعن «فرانكفورت المتأنقة»، ذات البناء الجميل والمريح، وهي مدينة مشرقة تزنرها من شتى الجهات حديقة طويلة جداً ورائعة»، وعن «مدينة التجارة الحرَّة» لوبيك، حيث «نظافة المنازل غير عادية، إذ لا توجد رائحة كريهة على الإطلاق في كلِّ المدينة »وحيث «المنازل الساحرة المنتشرة خارج المدينة متشابكة مع الأشجار والشجيرات والزهور...»

كانت هذه، إذا جاز التعبير، ألمانيا في وقت مبكِّر بالنسبة لغوغول، المشرقة، تقريباً الجنَّة، الغارقة في الحدائق، وفي الزهور، وفي عبير رقيق، يعيش فيها سكان مبتسمون وجميلون. ثمَّ ظهرت ألمانيا أخرى، متأخرة وأيضاً لغوغول، لكنَّها بالفعل جهنميَّة تماماً، فظيعة، مرعبة، يلفُّها الهواء الرمادي الجليدي، والغارقة في البيرة، وفي القذارة وسخام التبغ. والأهم من ذلك، ظهر سكان بها يتناسب مع ألمانيا هذه غير الأرضيَّة- تحت الأرضيَّة: «الألمان القبيحون»، نوع من الجن. ثمَّ بعد ذلك عندما حدث ما حدث، اكتشف غوغول جنَّة عدنه - البلد الجنَّة إيطاليا سكانها- الإيطاليون، الذين لم يحبهم

فحسب، بل وجد فيهم الانفتاح والكرم، والعقل الرشيق واسع الحيلة، والبهجة الطفولية، والفخر والشجاعة. نعم، لقد أحبَّهم كثيراً لدرجة أنَّه إذا فارقهم لبعض الوقت- بالضبط عند أي رحلة إلى الشمال، وراء جبال الألب، كانت تبدو له رحلة مروِّعة إلى فضاء جهنمي، إلى بعض «ألمانيا الحقيرة»- منذ ذلك الوقت أصبح «يَعِدُّ أيَّ إيطالي شخصاً مقدساً»، حسب شهادة نيكولاي يازيكوف، الذي عاش معه في روما، وفي هذا يقول الشاعر بحزن شديد: «ولذلك إنهم يخدعونه في كل خطوة». بالطبع، لم يستطع غوغول مشاركته هذا الحزن. لقد سامح الإيطاليين لكلِّ شيء على الإطلاق، بما في ذلك الخدع التي أضرَّت بجيبه. حتّى إنَّه تأثَّر عندما غشَّه صانع أحذية محتال وباعه حذاء غير قابل للاستخدام تماماً، رافعاً من شأنه إن لم يكن إلى السماء، فإلى قدمي البابا نفسه. لكنَّه لم يسامح الألمان على أي شيء. كان كل شيء لدى الألمان يزعجه بدءاً من «الصدق الأجوف» وانتهاء بالبدانة الجسدية، التي توجد بالطبع بين ممثلي أيِّ أمَّة. كان غوغول ببساطة خائفاً من الألمان البدينين، على الرغم من أنَّه في البداية سخر من خوفه. شرح لأخواته: «هل تعرفن ما هو الحنطور؟ هذه عربة، يحقُّ لكلِّ واحد دفع ثمن مكانه الجلوس فيها.

يجلس ستَّة أشخاص داخل العربة. إذا جلس شخصان من الألمان النحيفين بجواري، فسيكون ذلك جيداً: سيكون لي فيها مُتَّسع. إذا جلس ألمان بدينون، فهذا سيِّئ: سيضيِّقون علي. على كلِّ حال، سأعمل من أحدهم وسادة وسأنام عليه».

ثمَّ، عندما انقسم العالم كلَّه في روحه إلى ألمانيا الجهنمية وإيطاليا السماوية، لم يكن لديه وقت للمزاح. كما أنَّه كان يأخذ مقعداً في الطابق العلوي من العربة لأنَّه كان يخشى ركوب الطابق السفلي في مقعد مشترك، لأنَّه كان يتخيَّل بأنَّه سيضغط عليه هناك «ألمان بدينون».

مهما كان الأمر، يجب الاعتراف أنَّ ألمان غوغول «القبيحين» و«البدينين»، الذين نشؤوا نقيض الإيطاليين «المقدسين»، لم يكن لهم علاقة بالواقع اليومي. كلاهما،على الغالب، ليس لهما علاقة بما يسمّى بنية الأسطورة، التي لا تسمح بوجود مثل هذا العالم حيث يوجد، على سبيل المثال، إيسر[1] فقط ولا توجد مجموعة الآلهة والكائنات الأخرى التي تتعارض معها - فانوف وإيروس وزويرجز ونورنز وفالكيري ...

(١) إيسر: مجموعة الآلهة الرئيسة في المجمع الإلهي في المعتقدات الجرمانية الدينية القديمة والمعروفة باسم أساطير إسكندنافية، هذا المجمَّع يتضمن كل من الآلهة أودين، فريغ، ثور، بالدر و تير. أما المجمع الثاني المضاد فهم الفانير .ففي الأساطير الإسكندنافية، تقاتل المجمعين في معركة طويلة، وانتهت بتوحيد المجمَّعين. (المترجم).

ومع ذلك، إذا وجد الألمان أن هذه التفسيرات غير مرضية تماماً، فيمكن عندئذٍ لفت انتباههم إلى حالة واحدة مهمَّة جداً، وهي، بالمناسبة، لا تبرِّر لغوغول على الإطلاق، ولكنها تسمح فقط بالنظر إلى الأمر بشكل مختلف.

منذ ذلك الوقت الذي بدأ فيه غوغول الإبداع الرئيس في حياته، والذي حسب قناعته، يجب أن «يخلِّصه من كل شيء» - «النفوس الميتة» – بدأ يحب فقط تلك البلدان التي كان يكتب فيها بشكل جيد. وهذه الدولة كانت واحدة فقط - إيطاليا. علاقته بالبلدان الأخرى كانت تعتمد بشكل مباشر إلى أيِّ حدٍّ كان التأثير هناك سيئاً على تقدُّم «النفوس الميتة» (لا يمكن أن يكون الأمر جيداً خارج إيطاليا). وإذا لم تتقدَّم في بعض البلدان على الإطلاق (وهو ما حدث غالباً في ألمانيا وسويسرا، لأن غوغول، الذي انقطع عن الكتابة، ذهب إلى هناك في مزاج كئيب جداً، تحت ضغط أمراضه - ليستكمل علاجه بالماء)، ثمَّ تحوَّلت هذه البلدان بالنسبة إليه إلى جحيم حقيقي. من الجدير بالذكر أن غوغول أدرك أحياناً أن كآبة هذا الجحيم العابر لجبال الألب هي كآبة تتهيأ له فقط كما نور الجنة الإيطالية: «يبدو لي كلّ شيء باهتاً وضبابياً بعد إيطاليا. تبدو الجبال الزرقاء السابقة، الآن رمادية. كل

شيء له رائحة الشمال بعدها. وعندما أتذكَّر أنَّني سأعيش شهراً، أو ربما أكثر، بعيداً عنها (الكوليرا، على الأرجح، لن تغادر روما قبل شهر من الآن)، إذن، يبدو لي، أنَّني وأنا حي أرى أمامي الأبديَّة، كتب لنيكولاي بروكوبوفيتش من جنيف. تتكرَّر كلمة «يبدو» ثلاث مرّات في هذا المقطع القصير».

ومن اللافت للنظر أكثر أن صورة أيَّ دولة مجاورة لمنطقة جحيم غوغول يمكن أن تتغيَّر بحدَّة في عيني غوغول إذا تحركت «النفوس الميتة» من مكانها في ذلك البلد. هناك رسالتان من رسائله، يفصل بينهما شهر ونصف فقط: واحدة إلى بروكوبوفيتش، والأخرى إلى جوكوفسكي. في كلتيهما، يصف غوغول سويسرا. في الأولى يشكو: «لقد عشت في جنيف أكثر من شهر، لكن أخيراً لم أعد أستطيع أن أتحمَّل المناخ الغبي المحلي. الرياح هنا أقوى من تلك الموجودة في سانت بطرسبرغ. كأنَّها توبولسك تماماً. الآن أنا ذاهب إلى بلدة فيفي الصغيرة، الواقعة على نفس البحيرة غير بعيدة عن قلعة شيلون، التي تعرفها. المناخ هناك مختلف تماماً، لأن الجبل يحجبها من الشمال».

سرعان ما وصل إلى فيفي، كما وعد بروكوبوفيتش. في رسالته الثانية- إلى جوكوفسكي- حول حياته في سويسرا، ذكر ما يلي:

«لقد حلَّ الخريف الرائع في فيفي أخيراً، تقريباً كأننا في الصيف. أصبح الجو دافئاً في غرفتي، بدأت العمل في «النفوس الميتة»، الذي كنت قد بدأته في سانت بطرسبرغ. لقد أعدت صياغة كلَّ شيء كتبته في البداية من جديد، فكَّرت في الخطَّة بأكملها والآن أنفِّذها بهدوء، كسجل للأحداث. أصبحت سويسرا أفضل بالنسبة إلي منذ ذلك الحين، وجبالها ذات الألوان الرمادية والليلكية والسماوية والزرقاء والزهرية أخف وزناً وأكثر خفَّة».

يمكنك بالطبع أن تغمض عينيك عن الأشياء الواضحة وتؤكِّد ببراءة أنَّه بفضل الجبل ذي الموقع الجيد، ظهر فجأة بدلاً من «توبولسك تماماً» الدفء والتهوية والخفَّة والتلوُّن المتغيِّر للطبيعة، وهذه التغيُّرات، بدورها، أثارت الإلهام في غوغول، والعمل الذي لم يستطع فعله في جنيف، تدفَّق في فيفي بهدوء ويسر. لكن هذا يعني الخلط بين السبب والنتيجة.

من الممكن جداً (على الرغم من أنَّه لا يجب الإصرار على ذلك) فيما لو أن غوغول كتب في فرانكفورت أو في لوبيك بالاتساق نفسه كما هو الحال في روما، فلن تكون حدائقهما مظلمة، ولن تغرقا في الرائحة الكريهة والأوساخ، ولتحولتا إلى بساتين من الجنَّة، وربما ظهر، بعض

«الإيطاليين القبيحين» في مكان ما في العالم المغلق فيما وراء جبال الألب، الذين يختلفون في كل شيء عن الألمان المحبوبين...

لكن إذا بدت هذه الأحكام أيضاً غير مقنعة للألمان، فسيكون من الضروري، عدم فقدان الأمل، ولفت انتباههم إليها... لكن لا، هذا يكفي!

يكفي تجنُّب الكلمات الصعبة والمؤلمة التي تلفَّظ بها. إذن، جحيم غوغول هو:

يجلس غوغول إلى الأبد في وسط ألمانيا الثلجية في غرفة باردة مملوءة بالدخان دون مدفأة أو موقد، ويضغط عليه ألمان بدناء من جميع الجوانب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغول وشبح النقطة

يورد أشهر مؤرخ للأدب الروسي، مؤلِّف العديد من المختارات الضخمة عن الأدب الروسي التي أعيد طباعتها عدّة مرات، البروفيسور أليكسي غالاخوف (١٨٠٧-١٨٩٢)، الحادثة التالية التي ذكرها له الممثل ميخائيل شيبكين كمثال قاتل لا يمكن تفسيره بتاتاً،على نفاق غوغول المثير للاشمئزاز، (ربما لمجرَّد السخرية). في خريف عام ١٨٤٨، عاش غوغول في موسكو عند بوغودين في ديفيتشي بولي. لم يكن قد انتقل بعد إلى جوار الكونت أ. ب. تولستوي في شارع نيكيتسكي بولفار في منزل تاليزين، والذي كان قد حدَّده الملاك عزرائيل منذ فترة طويلة لعقد اجتماع سري (في وقت مبكِّر من صباح يوم الخميس٢١ شباط عام ١٨٥٢) مع ذلك الكاتب المضطرب الذي كان في الفترة الأخيرة يفضِّل العربة، وعربة القطار، ولاندوليت[١]، على الحيطان الثابتة، والذي لا يمكن أن يثبت في مكانه بسبب «الاضطراب العصبي الشديد»، الذي استولى عليه أخيراً بشكل كامل في منزل تاليزين.

(١) لاندوليت: العربة الخفيفة ذات المظلة القابلة للطي فوق المقعد الخلفي. (المترجم).

في منزل بوغودين- قبل آخر محطة من حياته في موسكو - كان المسافر لا يزال يختار الخيول، ويبحث عن الأحدث الأكثر فخامة، ويفكِّر في كيفيَّة الوصول إلى النقطة المشعَّة- نهاية المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، الذي كان ينتظره المجتمع الأدبي بفارغ الصبر، ويستعجل الكاتب بلطف، وودٍّ، وإخلاص دون التكلُّف الذي يميِّز هواة الموهبة، غير مدركين أيَّ قوَّة وأيَّ إله منير يجب أن يهبط عليه، حتّى يؤمن على الفور بالمستحيل، الذي لا يمكن تصوّره، والذي لا يمكن أن يتحقّق بتاتاً أو، بشكل أكثر دقة، فيما بدا قبل دقيقة...

لم يعرف غوغول نفسه كيف يسمّي هذا الإله الغامض، الذي أزال من أمامه وهم عدم الاكتمال، وألهم الإيمان القوي بشكل مدهش في اكتمال العمل غير المكتمل بوضوح، في البداية للكاتب نفسه، ثمَّ بعد ذلك لأحد قراء المستقبل الصارمين بلا حدود، على سبيل المثال الكونت ليف تولستوي. لكن يبدو أن غوغول كان مدركاً دائماً أنَّه فقط «الإله الذي لا يمكن أن يكون على الأرض» و«حياة روحي»، و«الحارس»، و«الملاك»، و«عبقريتي»(«آه! .. أنا لا أعرف، كيف أسميك عبقريتي!»)، - إنَّه فقط الذي كان يعطيه القدرة على وضع نقطة معينة لإشعاع نور خاص... - أي نقطة أو

علامة ترقيم بسيطة تدل على (إرادة الإله) لم تعد علامة ترقيم، ولكن صمت ملهم، النهاية، الاكتمال ...

وهكذا، كانوا يستعجلونه ويزورونه.

كان الزائرون يسألونه بمودَّة ما هو الجزء الذي سيكتبه في المجلد الثاني من «النفوس الميتة» بالضبط، والأهم من ذلك، لماذا هذا العمل «ضروري للوطن»، هل يتقدَّم؟ وهل هناك وقت طويل لصدور هذا الكتاب الذي يبدو مسبقاً أنَّه رائع؟ لم يكذب غوغول وكان يجيب أن العمل يتقدَّم بشكل سيِّئ جداً، يضطر أحياناً أن يسحب «الكلمة بالكماشة» من أين؟ من هناك، من المكان الذي جرى منه سحب كلمات «الزواج»، و«العربة»، و«الأنف» بالكماشة، من هناك، حيث تختبئ جميع النصوص التي كتبت سابقاً، وتكتب الآن بترتيب صارم ومنظَّم، والتي ينتظر «ظهورها»، كما كان من الممكن أن يقول الحكماء الريش[1]، باللغة السنسكريتية غير المرئية من هناك، «Avyakta Parva»

(١) ريشي هو مصطلح فيدي من الهند القديمة لشاعر استلهم تراتيله من الفيدا. تعتبر تقاليد الهندوسية ما بعد الفيدية أن الريشيين هم الحكماء الذين أدركوا بعد التأمل العميق الحقيقة العليا والمعرفة الأبدية، التي نظموها لاحقاً في تراتيل. (المترجم).

(أفاياكتا بارفا) - «كتاب غير مجسَّد» - الكتاب الوحيد الذي انتهى واكتمل، والمعروفة بعض أجزائه غير المترابطة وغير الواضحة وغير المتماسكة: «الأنف»... «الأوديسة»... «فن الطبخ»... «غروب أوروبا»... «أفستا»... «دليل مربي النحل»... «ماهابهاراتا»...

ثمَّ إن غوغول لم يكذب أيضاً بشأن توقيت إتمام الكتاب. حتّى في عام ١٨٤٣، عندما حثَّه صديقه الأديب ستيبان شيفيريف بإلحاح على كتابة المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، والذي نشر في «موسكفيتيانين»، بشكل غادر إشعاراً مزيفاً حول اكتمال القصيدة[١]، على أساس أنَّها جاهزة للنشر، كبت غوغول بصعوبة شعوره بالغضب وبكلمات حكيمة ومهذبة وصحيحة، كشف لشيفيريف بالمصادفة سرَّه القديم: «أحياناً، من خلال قوَّة عيني وأذني الداخلية، أرى وأسمع الوقت والمكان الذي يجب أن يصدر كتابي فيه»، أعترف هو للمهتم الملحاح في رسالة من روما بتاريخ ٢٨ شباط. ثم أضاف وكأنه مذنب: «لا تدينني. هناك أشياء لا يمكن تفسيرها. هناك صوت يأمرنا، يكون عقلنا المثير للشفقة أمامه ضئيلاً، وهناك الكثير الذي لا يمكن الشعور

---

(١) أطلق غوغول على رواية "النفوس الميتة" تسمية القصيدة للتأكيد على طبيعتها الملحمية. **(المترجم)**.

به إلّا في أعماق الروح وفي لحظات الدموع والصلاة، وليس في لحظات الحسابات اليومية!»

عندما شعر غوغول وقتها، في شباط عام ١٨٤٣، أن إله النقطة المشعَّة، الذي استدعته الدموع والصلاة، سيظهر له في غضون عامين. أصرَّ: «ليس قبل ذلك!». «حتّى لو افترضنا أن العمل سيجري دون انقطاع ولا شيء يمكن أن يوقفه». لأنَّ الإله لا علاقة له بكيفية تقدُّم العمل. سيظهر في لحظة خيالية معيَّنة، والمؤلف «سيشعر في أعماق روحه» بأن العمل، حتّى لو لم يتقدَّم على الإطلاق، قد انتهى ببراعة.

تحدَّث أيضاً عن عامين. بعد نصف عام ردَّ بحدَّة أكثر من ردِّه على شيفيريف، وعلى ملحاحٍ آخر لطيف هو رفيق المدرسة، الشاعر نيكولاي بروكوبوفيتش، قال له بحدَّة أكثر من ردِّه على شيفيريف: «من المعيب أن تكون مثل الطفل ولا تعرف هذا!» حقيقة أن غوغول، غوغول شخصياً «هو آخر من يمكن مطالبته بالسرعة». أمّا بالنسبة للإله، فقد ألهم غوغول أن يكتب لبروكوبوفيتش البريء من ميونيخ: لم يجرِ إعداد المجلد الثاني من «النفوس الميتة» للنشر فحسب، بل حتَى لم يُكتب بعد، وقبل عامين لا يمكن أن يصدر"،

ومن بين أسباب البطء يمكن ذكر عدم المبالاة التي أصبحت مقولة مألوفة للجمهور: «أنا أعاني صعوبات نتيجة نوبات مؤلمة مختلفة».

بعد ذلك بعامين، تمَّت كتابة ما يسميه علماء الأدب الآن "النسخة الأصلية للمجلد الثاني من «النفوس الميتة»، لكنه لم يخرج إلى النور، ولكنه خرج إلى مصدر الضوء، إلى النار. لقد خدعه الإله، أو أن «الصوت الذي يأمرنا» لم يسمع بوضوح كافٍ من قبل غوغول. بطريقة أو بأخرى، لم تشع النقطة التي طال انتظارها، سواء في المخطوطة أم في خيال غوغول (وهو الشيء نفسه)، أو في النار الغادرة التي أغرت الكاتب الساذج بوعد كاذب أن يقذف هذه النقطة المنشودة في الهواء إلى الأبد مثل الشرارة الطائرة.

ولذلك استمر العمل.

استمر العمل في عام ١٨٤٨، عندما كان غوغول في موسكو عند بوغودين. على أيِّ حال، استمر غوغول يكرِّر الشيء نفسه لكلِّ من زاره في منزل بوغودين، بما في ذلك الممثل شيبكين، وفقاً لألكسي غالاخوف - أنَّه يعمل على إنجاز المجلد الثاني من «النفوس الميتة». ومع ذلك، فقد أشار إلى مواعيد مختلفة لإنجاز العمل، وأحياناً خيالية تماماً. يتذكَّر الشاعر والمترجم نيكولاي

بيرغ، الذي يبدو أنه تعمَّق بشكل أكثر دقَّة من الآخرين في كل تفاصيل وخصائص عملية كتابة غوغول، وركَّز اهتمامه على «كيف» يكتب غوغول، ولم يهتم كثيراً عمّاذا يكتب، «محادثة مرتبكة إلى حدٍّ ما» يصبح خلالها غوغول إمّا عصبياً وبسخرية يوبِّخ الجمهور الغبي، وإمّا يصمت فجأة مدَّة طويلة، ليقع في نوع من عدم الإحساس الزجاجي"، لقد طالب بمنحه ٢٥ عاماً لوضع اللمسات النهائية للمجلد الثاني من «النفوس الميتة»- لظهور واحد من أكثر المقاطع استعصاء على الحل «أفاياكتا بارفا». ومع ذلك، بالنسبة لبيرغ، هذه المدة الزمنية ليست مزحة، (يلاحظ أن هذه المدَّة الزمنية تشبه «الأعمال الشاقة تماماً»)، لا يبدو أنَّها خيالية على الإطلاق. مثل العديد من الأصدقاء المعاصرين لغوغول، (يمكن الغفران لبيرغ دون شك، لأنَّه أراد بصدق وبصدق كامل أن يعرف حتّى نوع الورق ومقاساته، وعلى وجه الخصوص، ما هو الحبر- «جوزي، مع بريق برونزي!»- يكتب نيكولاي فاسيليفيتش المتكتِّم)، لم يفوِّت فرصة قطُّ للنظر سرّاً في مخطوطة عمل غوغول. ومثل الكثيرين، تفاجأ بيرغ عندما اكتشف أن غوغول «لا يتصنَّع على الإطلاق»، عندما يتحدَّث إمّا بانزعاج مبهج، أو بأسف يائس حول الكماشة غير المرئية والميتافيزيقية، التي عليه أن يسحب بها

الكلمات والجمل والمراحل والنقاط العديدة والنقاط التي تشبه اللؤلؤ (**«من المنطقة القاتمة غير الظاهرة إلى عالم آغني[1] الصافي الملتهب، إلى منطقة الضوء الأرضي»- كما كان يغني الريش الملهمين).** في بعض الأحيان، تتعثر هذه الكماشة، التي تحدَّث عنها غوغول باستمرار وخاصَّة في خريف عام ١٨٤٨ - لبوغودين، وشيفريف، وللأب والابن شيبكين، وبيرغ – مدَّة طويلة، في مساحة غامضة بشكل مؤلم بين «أفياكتا بارفا» العالية ومخطوطة منخفضة مبعثرة بكرات الخبز الملفوف والملطخة بحبر الجوز لمدَّة طويلة جداً. وفقاً لحسابات بيرغ، الذي زار غوغول في ١٧ تشرين الأول عام ١٨٤٨، أي في اليوم الثالث من وضعه في منزل بوغودين، ثمَّ كرَّر زيارته في منتصف كانون الأوَّل (في المرتين، أتيحت الفرصة لبيرغ المحظوظ بإلقاء نظرة على المخطوطة)، كان غوغول، خلال ثمانية أسابيع، يكتب بشكل يائس الجملة نفسها، «التي كانت تمثِّل ظاهرياً بالفعل»، كما يقول بيرغ، «نوعاً من البنية الضخمة. أمّا بالنسبة لمحتواها الداخلي، الآن فقط يمكن أن يحكم عليه الإله...»

---

(١) آغني بمعنى النار، هو إله في الميثولوجيا الهندوسية. وتزعم كتب الهندوس المقدسة أنه كان لآغني وجهان أحدهما خيّر والثاني شرير، وأن له ثلاثة (أو سبعة) ألسنة نارية. (المترجم).

خلال هذه المرحلة كان ميخائيل شيبكين يزور غوغول يومياً تقريباً، عندما كان يعمل على هذه الجملة الغامضة بالتحديد (بناءً على التواريخ التي أشار إليها بيرغ)، لكن حادثة غريبة جرت مع شيبكين جعلت مؤلِّف المختارات أليكسي غالاخوف يدهش من خداع غوغول الذي لا معنى له.

على النقيض من بيرغ، لم ينظر شيبكين أبداً في مخطوطات غوغول، ومن ثمَّ فقد حكم على كيفية تقدُّم العمل في المجلد الثاني من «النفوس الميتة» من خلال مزاج نيكولاي فاسيليفيتش وحده فحسب. ذات مرَّة، بعد أن جاء إليه شيبكين لإجراء حديث يومي عادي لا علاقة له بالأدب، بدا غوغول وكأنَّه يحب مثل هذه الأحاديث التافهة مؤخراً- حول هذا وذاك - لكنَّه أصبح على الفور عبوساً وبارداً بمجرَّد أن جرى الحديث حول كتاباته، ولاسيَّما حول «النفوس الميتة». رأى شيبكين غوغول جالساً إلى مكتبه مبتهجاً وسعيداً بشكل غير عادي، إلى درجة من البهجة والسعادة، اضطر معها شيبكين، إلى السؤال في ارتباك، عمّا إذا كان غوغول في حالة صحية جيدة؟ أي هل ينوي «فجأة وفي الحال» الانغماس في «البرودة القاتلة للمشاعر»، التي كانت بوادرها، وفقاً

لملاحظة شيبكين، تبدو في أحيانٍ كثيرة بشكل نوبات من الفرح بلا سبب، والتي كانت تضايق غوغول بما لا يقل عن نوبات الخدر الحيوي". لم يسمع إجابة، كما لم يكتشف أيَّ تغيُّر مرعب في وجه ونظرات غوغول. شبك غوغول -كما في السابق- يديه حول ركبته المرفوعة، ورفع رأسه عالياً بمهابة، وهو جالس على كرسي من صوف الغنم الناعم، وتطلَّع إلى ضيفه بنظرة معبِّرة. قال شيبكين، ولكن بارتياح، على الرغم من عدم وجود الثقة المناسبة، محتفظاً بلمسة من النغمة الحنونة في صوته: «من الملاحظ أنَّكم في مزاج جيد، أليس كذلك؟»

ثمَّ، فجأة، بدا غوغول، كما لو أنَّه لم يعد قادراً على الاستدراج، بمكر، لأسئلة إيحائية أخرى من شيبكين، لم يعد قادراً على التردُّد في الإعلان باعتزاز عن الشيء الرئيس المهيب الذي طال انتظاره والذي غرس فيه شعوراً بفرح الانتصار والإنجاز السعيد، صاح: «أنت خمَّنت ذلك! هنئني: لقد أنجزت العمل».

نعم، في ذلك اليوم، ١٤ كانون الأوَّل عام ١٨٤٨، تماماً في ذلك اليوم الذي قام فيه الفضولي والمتجسِّس بيرغ بزيارته الثانية إلى منزل بوغودين، أعلن غوغول لشيبكين، وفقاً لمعلومات غالاخوف المنصوص عليها في

كتاب «النشرة التاريخية» في شباط عام ١٨٩٢، عن الانتهاء بشكل كامل من العمل على المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، ومن ثمَّ، أخيراً أضاءت قصيدته بأكملها - بالضبط مثل «ليلة مؤرّقة سماوية وملهمة أوكرانية مشعَّة بقمر مكتمل - ظهر إله غامض من نقطة مكتملة».

ليس ثمَّة ما يستدعي القول إن شيبكين كان غارقاً في هذا الإعلان العاصف. كتب غالاخوف: «كاد شيبكين يرقص من السرور»، مدركاً عمق ما حدث وأهميَّته بالنسبة لروسيا والمعاصرين والأجيال القادمة. راح شيبكين يهنئ المؤلف «بكلِّ الطرق»، وينحني له حتّى الحزام نيابة عن جميع المواطنين، وألقى الخطب وعانق نيكولاي فاسيليفيتش الذي لا يقدَّر بثمن، وقبّله، وأمسك بذراعيه، وحاول أن يطوقه في رقصة فالس؛ وكان يلقي بنفسه على الأريكة، ويقفز مرَّة أخرى ليقبله ويهنئه وينحني ويدور. كان شيبكين ببساطة في حالة جنون. استجاب غوغول لكلِّ هذه التعبيرات النارية عن المشاعر سواء أكانت صارمة كمواطن وقارئ أو حرَّة كصديق بابتسامة المبدع المذنب السعيد الذي استحق التقدير العالي على أعماله.

أخيراً حانت لحظة الوداع. سأل غوغول - الذي كان لا يزال في الحالة النفسية ذاتها التي رآها الضيف المرحَّب به بوضوح منذ نحو

ساعة- شيبكين وهو يرافقه إلى باب غرفته: «أين ستتناول غداءك اليوم؟»، ردَّ شيبكين أنَّه ذاهب لتناول الغداء عند عائلة أكساكوف، ولكن بسبب هذه الحالة المهمَّة التي انكشفت له... «شيء بديع أنا سأتناول طعام الغداء هناك أيضاً»، قاطعه غوغول. وبعد أن ودَّع شيبكين بحرارة أكثر من المعتاد توجَّه إلى مكتبه ومن جنب الطاولة نفسها، ودون أن ينظر إلى الوراء، أضاف: «سنلتقي جميعاً هناك وسنتحدَّث باستفاضة.»

من السهل أن نتخيَّل مع أيِّ نفاد صبر مثير، مع أيِّ أفكار قلقة، وأنخاب متألِّقة وخطابات مشوَّشة كانت تغزل في رأسه، هرع شيبكين إلى هذا الغداء عند عائلة أكساكوف. كان شيبكين، الذي أصبح سعيداً بالمصادفة في تلك الساعة، صاحب الخبر الذي طالما انتظره الجميع بإصرار وأرق منذ مدَّة طويلة في عموم روسيا: «النفوس الميتة» انتهت كتابتها!

من الصعب كثيراً تخيُّل المشاعر المتناقضة التي اندلعت في قلب الممثل شيبكين، الودود المخلص لغوغول، خلال ذلك المشهد الدرامي - وإذا لم يتجنَّب المرء التعبير الأكثر دراماتيكية في تاريخ الأدب الروسي بأكمله - مشهد العشاء في منزل أكساكوف، والذي

كان يجب أن يملأ الصفحات في جميع المختارات الأدبية في الماضي والمستقبل، والذي وصفه مؤلف المختارات الأدبية غالاخوف بإيجاز - للأسف، بإيجاز جداً، ودون الخوض في التفاصيل المهمَّة جدّاً لنا. ومع ذلك، وفقاً لغالاخوف، الذي لم يخُضْ بالتفاصيل، بدا المشهد مؤثِّراً وكريهاً، لأنَّ أيّ كذبة يمكن أن تكون مؤثِّرة وكريهة.

بمجرَّد أن ملأ الضيوف منزل أكساكوف بصخب، جلسوا على طاولة طويلة، وكالعادة، هدؤوا للحظة، نهض شيبكين وألقى نظرة على الجميع حوله تحمل معاني كثيرة وأعلن بمهابة:

- أيها السادة! قدِّموا التهنئة لنيكولاي فاسيليفيتش. لقد أنهى الجزء الثاني من «النفوس الميتة»!

لو لم يَسُد الجمود المرتعش والصمت المطبق بعد هذه الكلمات لأكثر من ثلاث أو أربع ثوانٍ، لما سمع أحد غوغول (ولن يسمع أحد على الإطلاق) وسط رعد التصفيق والتهاني.

لكن غوغول تمكَّن في الوقت المناسب أن يقفز فجأة، ويسحب المنديل من صدره (استغرقت إيماءة الغضب الشديدة هذه أيضاً بعض الوقت)، ليصرخ بسرعة:

- ما هذا الهراء!

وبعد لحظة، عندما كان من الممكن بالفعل أن يسمح لنفسه بالإبطاء المشؤوم، قال غوغول، بتهديد وإلحاح رافعاً يده بالمنديل فوق الطاولة مصوِّباً على صدر شيبكين ببطء كما في المبارزة:

- ممَّن سمعت ذلك ؟

جلس شيبكين على الكرسي بلا حول ولا قوَّة، وكان لا يزال غير مصدِّق ما حدث، تماماً كما لا يريد الحالم أن يصدِّق عريه غير المتوقَّع وغير المعقول في الأماكن العامَّة، وهو يتمتم بأمل ضعيف:

- منك أنت نفسك. أخبرتني صباح هذا اليوم.

لكنَّ غوغول بدَّد على الفور كلَّ أمل، وفي هذا الوقت الحرج نفسه الذي شعر به الكثيرون من الحضور قال:

- ما بك يا عزيزي، ارسم علامة الصليب على نفسك.

- واصل، ولكن بلين متظاهراً بابتسامة سلمية قبل أن يضحك الجميع بارتياح - لا بدَّ أنك جننت أو رأيت ذلك بالمنام.

لا، بالطبع، لم تتهيأ لشيبكين زيارته الصباحية لنيكولاي فاسيليفيتش. وسمع عن نهاية القصيدة منه من غوغول. لكن من غوغول الآخر

المختلف تماماً. ليس من ذلك الغوغول السخيف والغريب والمراوغ، الذي يوجِّه إليه أليكسي غالاخوف دهشته وسخطه:

السؤال هو: «لماذا كذب الرجل؟»

من غوغول غير البشري الذي لا يمكن فهمه، والذي كذب عليه الإله نفسه من علوه معتبراً إنه نِدٌ له، يمكننا الاقتراب من هذا المراوغ (وليس الملتوي) الشبحي غوغول من خلال الرجوع نصف خطوة إلى الوراء، إلى تلك اللحظة الساحرة عندما ودَّع غوغول شيبكين، واتفق معه حول اللقاء على الغداء عند عائلة أكساكوف، اقترب من مكتبه ليلقي نظرة المنتصر الصارمة مرَّة أخرى على النهاية الملهمة للقصيدة. يمكننا الاقتراب. لكن لا توجد تفاصيل- حقيقية أو خيالية - تساعدنا على أن نتخيَّل بوضوح بأيِّ شكل من الأشكال (كيف كان حال المسكين شيبكين)، الذي تعرَّض للعار ببساطة. ما هي المشاعر التي مرَّ بها غوغول عندما اكتشف فجأة، أو من الأفضل أن نقول، رآها «بقوَّة عينه الداخلية»، أنَّ النقطة الأخيرة من القصيدة، التي تخيلها بحزم، التي تألَّقت أمامه بشدَّة طوال الصباح كنجم نقي دون وميض، تنطفئ وتتلاشى، وتذوب، وتتحوَّل إلى شبح لا يكاد يمكن تمييزه- ما هي الصلوات، والتعاويذ والدموع

التي اعتصرها قلبه عندما هرب من خياله العنيد بشكل ميْئوس منه، وهذا الشبح الشاحب للنقطة الساطعة، وفي أي «عدم إحساس زجاجي» غرق عندما تبخَّرت النقطة الإلهيَّة تماماً، وتركت له بمظهرها الخالي من الحياة ساخرة، علامة ترقيم عادية ... دون محاولة التعمُّق في مشاعر الكاتب «المخادع» التي لا نعرفها، ودون الدخول في نقاش ليس له جواب مع غالاخوف المتوفى منذ مدَّة طويلة، بشأن طبيعة هذا «الخداع»، يمكننا القول بدرجة معقولة من اليقين شيئاً واحداً فقط: بعد مرور بعض الوقت على مغادرة شيبكين منزل بوغودين، إذ جرى الاحتفال مع غوغول بشكل عاصف بنهاية القصيدة، إن النقطة الأخيرة لم تعد موجودة في خيال غوغول المنتصر والملهم، ممّا يعني أنَّها لم تكن موجودة في أيِّ مكان. إنها ليست بين الأوراق المكتوبة، ولا بين الكومة السميكة ل «أوراق البريد الكبيرة الحجم» النظيفة، التي سيحتاج تلويثها إلى ٢٥ عاماً كاملة، كما سيقول غوغول لنيكولاي بيرغ في اليوم نفسه! وأكثر من ذلك – لم تكن موجودة النقطة الأخيرة التي تلألأت في عمل شاق في تلك الجملة الهائلة، التي لا يمكن التقاطها بأيِّ كماشة، والتي بناها غوغول بشكل يائس على مدى ثمانية أسابيع...

نعم، لقد أضاء هذا النجم الغريب القوي لوقت قصير سماء خيال غوغول، إلّا أنَّه غير قادر على الحياة. لقد جاء بيرغ إلى غوغول بعد ساعتين من مغادرة شيبكين. واستناداً إلى الحالة التي وجد فيها غوغول، الذي كان يتحدَّث الآن عن «الأشغال الشاقة»، ويعبِّر عن انزعاجه من الجمهور الأحمق، كانت الكارثة حينئذٍ قد حدثت بالفعل. ولكن مهما كان الأمر، فنحن نعرف حدود تلك الفترة التي كانت خلالها قصيدة «النفوس الميتة» في حالة مكتملة بشكل مطلق وغير مشروط، أي عملياً، انعكست ذاتياً في روح خالقها، ولسبب ما لم يحافظ على القصيدة في هذه الحالة المرغوبة. بدءاً من ساعات الصباح ليوم ١٤ كانون الأوَّل عام ١٨٤٨ - قبل وأثناء زيارة شيبكين - وانتهاءً «نحو الساعة الثانية بعد الظهر»، عندما طلب إبلاغ السيد بيرغ بوصوله، كان لدى غوغول الإمكانية والقدرة على إتاحة المجال للقراء أو لنفسه شخصياً (والذي كان أكثر ما يميِّزه) لقراءة مخطوط المجلد الثاني المكتمل من «النفوس الميتة» من قبل أيّ شخص يرغب في ذلك. بعد هذه الفترة، اكتسبت القصيدة، للأسف، مثل هذه الحالة التي كان يجب أن يستمر العمل فيها.

واستمر العمل. من المكان نفسه، من الجملة نفسها... ولكن بيرغ الوحيد الذي كان محظوظاً بما يكفي لرؤية هذه الجملة الأخيرة

(الآن ليست الأخيرة) القصيدة التي ظهرت مؤقتاً - هذه الصَّدَفة الفارغة، الخالية الآن من اللؤلؤ، والتي لا تزال تحتفظ بآثار وجودها من هذا الإله المشع، الذي منح غوغول أكثر من مرَّة قوَّة لا يمكن تفسيرها لإظهار أيّ جزء من أجزاء «أفياكتا بارفا» بشكل فوري وكامل، في أيِّ مرحلة من مراحل الظهور.

آمن غوغول بهذا الإله بإخلاص تام، مرَّة واحدة فقط، بعد أن تخيَّل بأن «العربة» التي كانت تقف عالقة بشكل مؤلم في كل خطوة، وفي كل خطوة كانت متألقة بشكل غير مسبوق، شكَّك غوغول في إلهه. وفقاً لتأكيد الكسندر دانيلفسكي، أقرب أصدقاء غوغول، رأى في مخطوطة «العربة» بالتأكيد الكلمات المكتوبة بعد الجملة الأخيرة - الآن الجملة الأخيرة («بعد أن قال هذا، صفق الجنرال الأبواب على الفور، ورد الغطاء على تشيرتوكوتسكي من جديد وغادر مع السادة الضباط») هناك كلمات «في الصباح التالي، ظهر تشيرتوكوتسكي، مرتدياً معطفاً مخاطاً بشكل سيئ، فاق بهتانه لون وجهه...» هذا الاستمرار للقصَّة الذي يبدو من حيث الشكل طبيعياً تماماً - لأن «العربة»، كانت حسب كل المؤشرات في منتصف الطريق، والتي بدت من حيث الشكل رصينة جداً، شطبه غوغول بحسم.

ومع ذلك، فإن الإله الفطن لم يتجاهل هذه النوبة الوجيزة من الرصانة الغادرة. على الرغم من أنها ليست بكامل قوَّتها، وليست بلا رحمة كما في حالة «النفوس الميتة» - فقد انتقم من غوغول بسبب الدقيقة التي فقد فيها الإيمان. من المعروف أن ن. س. تيخونرافوف، وهو يحرِّر الطبعة الثانية عشرة من أعمال غوغول للناشر ماركس، أصرَّ بعناد، «كما لو أنَّه في حالة صحيَّة مضطربة»، على وضع «العربة» في قسم الأعمال غير المكتملة التي أدخلها في المجلد الأوَّل، كما يتذكَّر زميله، المصحح اللغوي س. م. ياشينكو.

في عام ١٩٠٢، ألقى الأستاذ المساعد في جامعة كييف أ. ف. تشاغوفيتس محاضرات عن غوغول للطلاب (نُشرت العام نفسه في كييف)، وقد عَدَّ «العربة» من بين «القصص غير المكتملة مع الأسف لعبقرية روسيا الصغرى». قبل ذلك بعام، في مدينة تاغانروغ، أدرج الناشر إي س. جادكو، الذي نشر لسبب غير معروف «المجموعة الكاملة لأعمال نيكولاي غوغول غير المكتملة» بما فيها «العربة» - ربما بسبب غرابته كناشر. ومع ذلك، مهما كانت الغرابة الكامنة وراء هذه الحالات، كان هناك في وقت معيَّن ما يكفي منها للقول بأن الرأي حول عدم اكتمال «العربة» ظهر غالباً

في نهاية القرن (التاسع عشر) وبداية القرن(العشرين). بقيت النقطة الأخيرة في «العربة» تومض إلى الأبد بشكل دوري. وقد تألّقت بشكل خافت، وأحياناً اختفت تماماً، ما بين القرنين. فقط ليو تولستوي رآها ببراعة في ذلك الوقت، أكثر من أيِّ شخص آخر: «أجمل شيء بالنسبة إلي هو «العربة» إنَّه عمل رائع لا يوجد فيه شيء لا لزوم له، متكامل...»- قال الكونت لدوشان بتروفيتش ماكوفيتسكي، العبقري المجتهد كاتب «مذكرات ياسنايا بوليانا».

لا شك في أنَّ قصيدة «النفوس الميتة» كانت لتبدو لليو تولستوي، ومعه جميع قراء الأجزاء التي ظهرت لـ «أفياكتا بارفا»، كاملة تماماً، لو لم يختف الإيمان باكتمالها وتبخَّرت بالمصادفة من روح نيكولاي فاسيليفيتش نفسه، من روحه الخالدة، التي كانت تحرص إلى الأبد على الحالة الظاهرة والكاملة لكلِّ إبداع له تخيَّله في وقت ما على هذا النحو، فيما لو أنَّه احتفظ به- على الأقل لبضع ساعات أخرى، على الأقل حتّى وقت الغداء عند عائلة أكساكوف - هذا الإيمان القوي بالنقطة الأخيرة، لو أنه أظهر أعلى تعبير عن التفاني لإلهه، أي - التأكيد على غير الواقعي، والمستحيل، والخيالي في مواجهة الاحتفالات العامَّة الحقيقية، فإن الإله الذي توقَّع هذا

من شريكه كتعبير عن الشكر ما كان ليجرؤ على الانسحاب من هذه الجملة المعجزة، والتي أصبحت معروفة لنا بفضل جهود بيرغ مع الأسف على الشكل التالي:

«كانت في البداية واضحة بشكل كاف للقراء، بعد ذلك اختفت تقريباً بالكامل في الإضافات والإدخالات والبقع والحذف المعقَّد الذي جرى إلصاقه بها بطريقة لا يمكن تصوّرها، في عاصفة كاملة من العلامات التي لا توصف لبعض التدقيق اللغوي الخيالي وغير المعروف لأحد، وغير ذلك من الرموز غير المفهومة التي برز من بينها شيء دائري غير ذي صلة، أو ربما نقطة مطليَّة بحجم لؤلؤة».

الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغول وغوغول

-١-

هل كان لعبة من لعب الطبيعة، من ابتكار الفكر أو محتالاً غريباً- المعروف أنَّه كان.

ليس خفّيّاً، ولا عابراً، بل صريحاً وحاسماً، وكأنَّه يريد الاقتراب من الواقع، فظهر إمّا في العاصمة الجديدة أو القديمة أو في أطراف الإمبراطورية أو خارج حدودها. لم يسع على الإطلاق ليكون غير مرئي، هذا ليس غوغول نفسه.

لكنَّ غوغول الحقيقي تمكَّن من اكتشافه فقط قرب نهاية مسار حياته.

نظر ذات مرَّة نحو وطنه من ألمانيا بعيون الروح بعيدة النظر، وفجأة رأى غوغول بوضوح «غوغول الآخر»، يتجوَّل بكل حريَّة في سانت بطرسبرغ، على شاكلة أنف الرائد كوفاليف.

كان صيف عام ١٨٤٧.

حينها كان غوغول (نفسه الأصلي) موجوداً في فرانكفورت على الماين، إذ وصل في ١٠ حزيران من نابولي، عرج خلال الطريق على

روما وفلورنسا وجنوة وباريس. أقام في فرانكفورت عند جوكوفسكي. لم يكن يعيش مكتوف اليدين، خلال الزيارة، كان يكتب الرسائل ليلاً نهاراً، وعمل بجدٍّ على نصٍّ مميَّزٍ، لم يكن له عنوان بعد. كان هناك كثيرٌ من الأعمال التي يجب القيام بها، وهي أعمال مهمَّة. تعرَّضت لانتقادات لاذعة «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء» من قبل بيلينسكي وروسيا. كان من الضروري الردَّ على الجميع، على بيلينسكي وروسيا، على اللوم الشرير والتوبيخات السامَّة. وأجاب غوغول عن ذاك في رسالة خاصَّة وعن تلك في عمل خاص، كان عنوانه (**«اعتراف المؤلف»**) والذي أعطاه هذا الاسم ليس المؤلف، وإنما ستيبان شيفريف، الذي حرَّر «مؤلفات ن. ف. غوغول، التي عثر عليها بعد وفاته».

هل كان من المهم إثبات أهمية قضية غوغول الآخر وسط هذه الأعمال. كانت هذه القضيَّة ذات أهميَّة قصوى.

في ٢٠ حزيران عام ١٨٤٧، أرسل غوغول رسالة من فرانكفورت على الماين إلى سانت بطرسبرغ. كانت موجَّهة إلى السيد نيكولاي ياكوفليفيتش بروكوبوفيتش - الأستاذ في المدرسة الداخلية للتعليم العسكري والأب لستة أطفال والشاعر الذي خدم الأدب الروسي،

ليس من خلال كتابه «قصائد شعرية» (سانت بطرسبورغ، ١٨٥٨ إصدار ن. ف. غيربل)، وإنَّما من خلال تنفيذ طلبات غوغول المستعجلة في روسيا، والتي كانت تتطلَّب كقاعدة عامَّة، تنحية كل أشغال بروكوبوفيتش المعتادة جانباً.

لم تكن الرسالة عادية - بل على النقيض من ذلك، كانت الأهم من بين جميع الرسائل العديدة التي كتبها غوغول في هذا الصيف الألماني في شقة الشاعر جوكوفسكي في منزل الصيدلي بيتر زالتسفيديل على الضفة اليسرى للماين.

هذه الرسالة جرى توجيهها بعد مذكَّرة تجريبية من عدَّة سطور، كان الهدف منها فقط التحقُّق ممّا إذا كان عنوان «الأحمر» (كان هذا هو لقب بروكوبوفيتش الذي أطلقه عليه غوغول في فترة المراهقة في المدرسة بسبب احمرار خديه المستديرين دائماً)، قد تغيَّر في سانت بطرسبرغ، فقد أزالت جدران الاغتراب المتبادل، ما ظهر بين الصديقين في خريف عام ١٨٤٣. لا يهم من هو المسؤول عن هذا الخلاف. تعامل الأحمر بإهمال شديد مع المهمَّة الموكلة إليه لنشر أوَّل مجموعة كاملة من أعمال غوغول في ٤ مجلدات. لم يقتصر الأمر على إنفاق ١٧ ألف روبل من العملات الورقية لإصدار خمسة آلاف

نسخة، في حين كان من الممكن أن يقتصر الأمر على ثمانية آلاف روبل، وعدا عن ذلك أخفى بجبن أن دار الطباعة «بورودين و ك» المحتالة التي استأجرها قد طبعت العديد من النسخ الإضافية من «النفوس الميتة»، بشكل غير قانوني، وباعتها بسرعة بأسعار متدنية لتجار الكتب في كلتا العاصمتين، ومن ثمَّ حجبت بذلك بيع النسخ القانونية. بدوره انتقد غوغول في رسائله باستمرار، رفيق المدرسة لكلِّ شيء: لأنَّه «لم يخبره عن دناءة المطبعة»، ولأنَّ «الناشر الوغد استخدم أوراقاً رديئة» ولأنَّ «الخط كان رديئاً أيضاً» - في نهاية الأمر استاء وسكت بروكوبوفيتش لسنوات. عدا عن ذلك كان ثمَّة حالة مهمَّة أخرى. فإن رسالة فرانكفورت لم تؤدِّ إلى رأب الصدع الذي أصاب الصداقة القديمة بين نيكولاي فاسيليفيتش ونيكولاي ياكوفليفيتش فحسب، بل أعادت بناء العلاقات الوديَّة - القديمة أيضاً: غوغول يكلِّف و«الأحمر» ينفِّذ.

كانت هناك ثلاثة تكاليف في الرسالة.

في البداية شكر غوغول زميله في المدرسة على الرسالة التي أرسلها له في منتصف شهر أيار، موضحاً لماذا شكَّلت لديه ارتياحاً: «لقد بدأت بالفعل أفكِّر أنَّك اكتأبت وذبلت من واجباتك الوظيفية المملَّة

قليلاً. لكن أسلوب كتابتك حيوي، وفكرك نقي»، ثمَّ نصحه بأن «يجرِّب ريشته» في النثر، مؤكِّداً له أن النثر الذي كتبه وهو لا يزال في المدرسة أفضل «عدَّة مرات» من شعره. ثمَّ أخبره أنَّه قرأ بعناية مراجعة بيلينسكي ل «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء» في عدد شباط من مجلة «المعاصر»، بعد ذلك أوضح موقفه من المُراجعة والمُراجع: «... لقد تأسفت كثيراً... ليس بسبب قسوة الكلمات... لقد اعتقدت أن بيلينسكي أكثر رفعة وأقل قدرة على مثل هذه الرؤية قصيرة النظر...»، وأخيراً شرع في إعلان التكاليف.

الأوَّل جرى صياغة باختصار:

«من فضلك تحدَّث إلى بيلينسكي، واكتب إلي ما هو مزاجه الآن فيما يخصُّني. إذا كانت الصفراء تغلي فيه، فدعْه يسكبها ضدّي في» المعاصر، «بأيِّ تعبير يشاء، ولكن دعْه لا يحتفظ بها ضدّي في قلبه».

الثاني - نابع من الأوَّل ونصفه مصوغ بإيجاز أكبر:

«إذا هدأ استياؤه، فأعطه الرسالة المرفقة، التي يمكنك قراءتها بنفسك».

كانت «الرسالة» الموجهة إلى بيلينسكي، الموضوعة في مظروف، هي الرسالة نفسها («قرأت مقالتك عني بأسف...»)، التي أثارت

حنق الناقد المصاب بمرض السل ودفعته إلى إجابة قاتلة (**«أيها الواعظ بالسوط، ورسول الجهل، ومؤيد الظلام والعتمة، ومادح عادات التتار - ماذا تفعل؟ ألق نظرة أمام قدميك...»** وما إلى ذلك).

التكليف الثالث كان مميَّزاً، وجرت صياغته بشكل مميَّز أيضاً. كان مكتوباً بشكل شامل مع العديد من التفاصيل. كان يتعلَّق بالتحديد بغوغول الغامض، الذي كان يتصرَّف في ذلك الوقت بشكل مستقل في العاصمة الروسية، وبغوغول الحقيقي الذي يعيش في الغربة، على الرغم من اضطراباته النفسية، وعلى الرغم من «الدوّامة والفوضى التي وجدت فيها كل الأشياء في العالم» بعد نشر «المقاطع المختارة»، كتب إلى بروكوبوفيتش بوضوح غير قابل للتأويل وبحكمة ساحرة، وإن كانت زائدة على الحاجة:

«اكتشف من فضلك، من هو غوغول الآخر الذي ظهر، على أساس أنَّه قريب لي. حسب ما أتذكَّر، لم يكن لدي أيّ أحد يحمل كنية غوغول، باستثناء أخواتي، اللواتي أولاً، هنَّ من الإناث، وثانياً، لم يشتغلن بالأدب. كان لأبي اثنان من أبناء عمومته عملا كاهنين، لكنَّهما كانا يحملان كنية يانوفسكي فقط، دون إضافة

غوغول التي بقيت لأبي فقط. إذا كان غوغول الذي ظهر هو أحد أبناء الكاهن يانوفسكي، الذي لم أره حتّى الآن بأم عيني، ففي هذه الحالة قد يكون بالفعل ابن عمٍّ ثانياً لي، لكنَّني في هذه الحالة لا أفهم لماذا عليه سرقة اسم غوغول... لا أقول هذا لأنَّني أدافع عن كنية غوغول، ولكن لأنَّه، في الواقع، بسبب ذلك، يمكن أن تحدث في الواقع بعض الأشياء السيئة، والقصص مع بائعي الكتب والخداع والتزوير في الأعمال الكتابية. لهذا السبب أطلب منك إخطار بائعي الكتب شخصيّاً لتجنُّب أيّ مخالفات في مجال الطباعة ليكونوا حذرين، وإذا أتى أحد ما إليهم باسم غوغول وعرض عليهم شيئاً ما أو تصرَّف نيابة عنّي، فعليهم أن يتذكَّروا أنَّه ليس لدي قريب باسم غوغول بالفعل، وإلى حدٍّ الآن لم أره بعيني. من أجل أن يلجؤوا إليك أو إلى بليتنيف في هذه الحالة لفضح القضية. وليس من السيئ إعلامي عن الشخص الذي ينتحل اسمي، بشكل ما، من أجل أن يتصرَّف باسمه الخاص. أيّ اسم وأيّ كنية يمكن جعلهما عظيمين. سيكون بالتأكيد مزعجاً بالنسبة إليه فيما لو نَشَرْتُ إعلاناً مطبوعاً».

-٢-

لم يتمكَّن «الأحمر» من تنفيذ الطلب الأوَّل. كان من الأسهل على غوغول نفسه أن يسافر للقاء بيلينسكي في ذلك الصيف. لم يكن الناقد في سانت بطرسبرغ على الإطلاق، ولكن على أراضي الاتحاد الألماني. قاد المرض فيساريون غريغوريفيتش إلى البلدة التي يعمُّ فيها الهدوء القاتل في سيليزيا البروسية التي تدعى زالسبرون، إذ عولج بالمياه المكتشفة حديثاً منذ بداية حزيران، حيث كان يعيش، كما يشير يبلغ بافل أنينكوف، الذي اعتنى به هناك «في بيت خشبي نظيف مع فناء مريح».

جرى تنفيذ الطلب الثاني من قبل بروكوبوفيتش بشكل غير دقيق، إذ كان ينبغي تسليم «الرسالة المرفقة»، التي وصف فيها غوغول بيلينسكي بأنّه «رجل غاضب» وألقى عليه باللوم على «الاستنتاجات الخاطئة» فيما يتعلَّق بـ «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء»، إلى المرسلة إليه في حالة «ما إذا كان استياؤه قد هدأ». لكن «الأحمر» لم يتصرَّف كما أمره غوغول، وإنَّما بشكل عشوائي. لم يأخذ في الحسبان نهائياً دقَّة دبلوماسية غوغول، ببساطة هو التقى موظفاً في وزارة الملكية نيكولاي تيوتشيف، الذي كان على علاقة صداقة وثيقة مع بيلينسكي الذي كلَّفه أيضاً

بالشؤون الخاصَّة. وبعد أن التقاه، لم يكتف بتسليمه الرسالة لنقلها إلى بيلينسكي في زالسبرون، ولكن لسبب ما أعطاه تلك الرسالة لقراءتها، وكانت موجَّهة إلى بروكوفيتش شخصياً، وتحدَّث فيها غوغول بحرية عن «تفاهة» استنتاجات الناقد. لو لم يرتكب بروكوبوفيتش كلَّ هذه التصرفات الذاتية، لما تسلَّم بيلينسكي رسالة غوغول ومعلومات إضافية عنها، والتي حصل عليها المتطفِّل تيوتشيف عند قراءة الرسالة التي لم تكن موجهة إليه، والتي ما كان لها أن تتسرَّب إلى العالم من «المنزل الخشبي في جبال السوديت «كالحمم النارية من الغضب والتوبيخات والاستنكارات»، حسب وصف بافل أنينكوف الذي كان شاهداً على كتابة رسالة بيلينسكي إلى غوغول من زالسبرون.

ولكن ما يهمُّنا هو التكليف الثالث.

هل كان بإمكان «الأحمر» تنفيذه بحسن نيَّة؟

كان الأمر صعباً بالطبع، صعباً لدرجة غير عاديَّة. وإضافة إلى ذلك كان الأمر معقَّداً.

أولاً، كان على بروكوبوفيتش أن يجد معلومات موثَّقة حول المخلوق الذي لم يكن موجوداً في فرانكفورت، ولم يزر جوكوفسكي، ولم يكتب رسائل إلى بيلينسكي، والذي كان يسمّي نفسه غوغول:

«اكتشف من فضلك، من هو غوغول الآخر الذي ظهر ...» إلى ما هنالك.

ثانياً، كان عليه «إخطار بائعي الكتب شخصياً لتجنُّب أيّ مخالفات في مجال الطباعة ليكونوا حذرين»، أي أن يقابلهم ويقول لهم إنَّ هناك غوغول وغوغول آخر في العالم - هذا وذاك، ولذلك ينبغي لهم ألّا يعتبروا غوغول أيّ غوغول يريد بيع مؤلفاته، وإنَّما يجب أن يستفسروا في كلِّ مرَّة عن مثل هذا الكاتب من شخص موثوق به:

«... وإذا أتى أحد ما إليهم باسم غوغول، وعرض عليهم شيئاً ما أو تصرَّف نيابة عني، فعليهم أن يتذكَّروا أنَّه ليس لديَّ قريب باسم غوغول بالفعل، وإلى حدِّ الآن لم أره بعيني. من أجل أن يلجؤوا إليك أو إلى بليتنيف في هذه الحالة لفضح القضية».

ثالثاً، كان من الضروري إقناع غوغول المكتشف حديثاً بألّا يُطلق على نفسه اسم غوغول، والتلميح له أنَّه يخاطر بالعار إذا كان غوغول القديم - المعروف لدى الجميع من زمن بعيد - سيقرِّر، حسب الرائد كوفاليفسكي، «الذهاب مباشرة إلى الصحيفة» و«نشر إعلان»:

«وليس من السيئ إعلامي عن الشخص الذي ينتحل اسمي، بشكل ما، من أجل أن يتصرَّف باسمه الخاص. أيّ اسم وأيّ كنية

يمكن جعلهما عظيمين. سيكون بالتأكيد مزعجاً بالنسبة إليه فيما لو نشرت إعلاناً مطبوعاً».

كان الجزء الأخير من التكليف المكوَّن من ثلاثة أجزاء صعب التنفيذ بشكل خاص. كان على نيكولاي ياكوفليفيتش أن يحاول «بطريقة ما» و«بشكل غير مباشر» إبلاغ أحدٍ ما، بحيث يقوم هذا الأحد ما بعد ذلك بإبلا غ الآخرين، والآخرين «للآخر» - حول تلك الظروف الغريبة التي، وفق التعليمات الأوليَّة لنيكولاي فاسيليفيتش، غير خاضعة للإفصاح. أو اختيار مسار مختلف، ليس أقلَّ صعوبة، وهو محاولة اللقاء وجهاً لوجه لإجراء محادثة مباشرة مع «الآخر» نفسه، مشاهدته على سبيل المثال، في حشد متحرِّك في شارع نيفسكي بدليل قلبه.

مهما كان الأمر، كان لدى «الأحمر» الكثير من العلامات الأوليَّة للتحقيق في قضيَّة غوغول الآخر.

كانت معروفة أهمّ خصائص الشخص الرئيس المعني.

هو لم يكن امرأة - «أنثى»، مثل أخوات غوغول، اللاتي «لم يشتغلن بالأدب» (لم يكتبن). لم يكن على الإطلاق أحد أقارب غوغول من المقرَّبين ولا البعيدين. لم يكن متواضعاً يحمل الاسم نفسه، بل كان الشخص الذي يستطيع بلا خوف «سرقة اسم

غوغول»، على الغالب، يتمتَّع بالاستقلاليَّة، وكان «مستقلًّا»، مثل أنف الرائد كوفاليف، لكنَّ كان لديه قواسم مشتركة مع غوغول أكثر من الأنف مع الرائد، أو إنَّه لم يكن يخدم «في هيئة أخرى»، وإنَّما بالهيئة الأدبية نفسها، أي إنَّه بالضبط كان كاتباً مثل غوغول.

كان هناك ما يكفي من البيانات.

لكنْ لم يكن لدى «الأحمر» أيَّ فكرة من أي جانب سيبدأ التعامل مع الأمر. لم يعرف بعض القصص المهمَّة للقضية - القصص الغريبة - التي تصرَّف فيها غوغول، وفي الوقت نفسه ليس غوغول، وحتّى لا يستطيع أن يعرف، خارج نوافذ منزله في جزيرة فاسيليفسكي في الخط التاسع بين شارعي بولشوي وسريدني، وكذلك خارج نوافذ منزل سالزويديل في حي زاكسينهاوزن على شاطئ شاومانكاي، كان صيف عام ١٨٤٧: كان غوغول على قيد الحياة، ولم تكن قد ظهرت إلى الوجود مجموعة المذكَّرات والوثائق والرسائل المطبوعة، التي من خلالها كان يمكن «للأحمر» أن يستشفَّ هذه القصص التي جرت في أوقات مختلفة، والتي تؤكِّد أنَّ كثيراً من المعاصرين كان لهم علاقة مع غوغول الآخر " (الذي كان ينتحل أحياناً اسماً آخرَ).

-٣-

في ٢ شباط عام ١٨٤٢، يبلغ الكونت ألكسندر غريستوفوروفيتش بينكيندورف، رئيس فيلق الدرك والمدير العام للقسم الثالث في مكتب الإمبراطور الخاص، القيصر نيكولاي بافلوفيتش في تقرير مكتوب عن شخص ما اتصل به، يسميه بكل ثقة غوغيل **(يكرِّره ثلاث مرات)**:

«أبلغني وصي منطقة موسكو التعليمية، الجنرال الكونت ستروغانوف أن الكاتب الشهير غوغيل موجود الآن في موسكو في وضع صعب جداً، وأنه بنى كلَّ آماله على مؤلفه الذي يحمل عنوان «النفوس الميتة»، لكن لم توافق عليه الرقابة في موسكو، وهو الآن قيد النظر من قبل الرقابة المحليَّة، وكيف أنَّ غوغيل ليس لديه طعام حتّى ليوم واحد، ولهذا السبب أصبح في حالة نفسيَّة حرجة تماماً، ولذلك يطلب من الكونت ستروغانوف إعطاءَه مساعدة مالية معيَّنة من كرم العاهل. أنا الأكثر ولاءً لكم جلالة الإمبراطور أخبركم حول هذا الالتماس للكونت ستروغانوف بخصوص غوغيل، المعروف بالعديد من أعماله، ولا سيما كوميديا «المفتش العام»، وأجرؤ على أن أطلب من صاحب الجلالة الرحيم إعطاءَه مكافأة لمرَّة واحدة قدرها خمسمئة روبل فضي».

أعرب المؤرخ ميخائيل ليمكي، الذي نشر هذه الوثيقة أوَّل مرَّة عام ١٩٠٨ كجزء من دراسة «درك نيكولاي والأدب ١٨٢٦ - ١٨٥٥»، عن رأي مفاده أن بينكندورف أوصى القيصر بغوغول، باسم غوغيل لعدم المعرفة وعن جهل.

«عندما سمّى مؤلِّف» المفتش العام «بأنَّه» كاتب مشهور، «لم يتردَّد القسم الثالث في تسميته بـ «غوغيل»...هكذا كان معروفاً له...» يلاحظ ليمكي باستهزاء، في الصفحة ١٣٥ من عمله.

ولكن في الصفحة التالية صاغ فجأة حكماً مختلفاً مناقضاً في الجوهر (وأكثر رصانة): «من الواضح أنه، عند تقديم مثل هذا التقرير، كان بينكيندورف يعلم أن نيكولاي قد ساعد غوغول من قبل، لأنَّه بخلاف ذلك، بالطبع ما كان ليجازف بطلب مساعدة للكاتب الذي لم تسمح الرقابة، التي تفرضها الحكومة، بنشر مؤلفه».

من ذلك يستشف أن رئيس القسم الثالث («مكتب التجسس المركزي»، وفقاً لتعريف غيرتسين) كان على دراية كاملة ويعرف تماماً من هو غوغول؟، وما هي علاقته مع الرقابة؟ وما هي المساعدة التي كان قد حصل عليها من الخزانة؟ وما هو ردّ الفعل على اسمه الذي كان يجب توقعه من القيصر، الذي كتب بالمناسبة، على التقرير : «موافق»؟.

من المحتمل أن بينكندورف كان على دراية بالعديد من الأشياء الأخرى المتعلِّقة بالمؤلف، الذي سمح القيصر شخصياً بعرض مسرحيته الكوميدية «المفتش العام». على سبيل المثال، ما هو الاسم الذي أطلقه غوغول خلال الغداء مع الأصدقاء على المشروب المشتعل «ججونكا»، الذي أحبَّه كثيراً. لقد أعدَّه بنفسه (من الروم والسكر والشمبانيا)، وأشعله بنفسه وشاهد كيف يخرج من الكأس لهب أزرق بلون زي البوليس، ثمَّ أعلن لزملائه الضيوف أن هذا المشروب هو «بينكندورف» الذي يجب أن يقوم بتنظيم الأمور في معدة ممتلئة، وشَرِبَ ألكسندر خريستوفوروفيتش في جرعة واحدة، ربما أراد بينكندورف الحقيقي أن يجعله يدفع ثمن بينكندورف الهضمي، ولذلك قدَّم غوغول كغوغيل في التقرير الذي رفعه إلى القيصر، يبدو أنَّه كان على علم بأنَّ الجاني لن يرى التقرير. ربما.

ومع ذلك، هناك حالة معيَّنة يجب أن يفكِّر فيها مليَّاً أيّ محقق مهتم بالقضية المتعلقة بغوغول الآخر، على سبيل المثال، بروكوبوفيتش. فيما لو أتيحت الفرصة «للأحمر» لدراسة المواد الضرورية، كان ينبغي له أن ينتبه إلى مصادفة مذهلة.

-٤-

في ١٣ تشرين الأوَّل عام ١٨٤١، قبل ثلاثة أشهر ونصف من ظهور كنية غوغيل في تقرير بينكندورف، غادرت عربة لنقل البريد والركاب من محطَّة عربات النقل على ضفة نهر مويكا في سانت بطرسبرغ باتجاه موسكو. يشغل شخصان من السادة القسم الأمامي. أحدهما - بيوتر إيفانوفيتش بيكر، ضابط مدفعية ونجل عضو مجلس الشيوخ إيفان أوستينوفيتش بيكر وصديق الكاتب سيرغي تيموفيفيتش أكساكوف. الآخر... الآخر قدَّم نفسه لبيكر على أنَّه غوغيل. فقط غوغيل. وأنَّه يتيم.

في الساعات الأولى من الرحلة، شعر بيكر بعدم الارتياح. في محطة المغادرة، حتّى قبل أن يقدِّم الجار نفسه على أنَّه غوغيل، أعرب بيكر بسعادة عن احترامه له، معتقداً أنَّه نيكولاي فاسيليفيتش غوغول.

لسبب ما غير معروف، كان بيكر على ثقة بأنَّ الذي أمامه غوغول نفسه- هل شعر بأنَّ هناك نوعاً ما من الشبه مع غوغول على شكل زميل سفر، أو، ربما، في لحظة تعارفهما، ومضت كلمة «غوغول» كأنها طائر، تحت السقف الزجاجي لساحة المحطة في مويكا، رفرفت عن غير قصد من فم أحد الركاب. تقول مذكرات أكساكوف فقط أن بيكر «كان سعيداً بمجاورة الكاتب الشهير».

الشعور بالإحراج، الذي استولى على بيكر بعد تحرُّك العربة، أضيف إليه الشعور بالانزعاج: السفر لأكثر من سبعمئة ميل، أكثر من ثلاثة أيام، مع «يتيم الأبوين»، روى عن نفسه «قصَّة يرثى لها». على الرغم من أنَّه في البداية، بعد أن «أكَّد له الجار أنَّه ليس غوغول وإنَّما غوغيل» (أكساكوف)، تصرَّف ابن عضو مجلس الشيوخ كما لو أن هذا التأكيد ليس كافياً بالنسبة إليه. تطوي العربة ميلاً وراء ميل، وبيكر يطرح السؤال تلو الآخر على زميل السفر: ما إذا كان السيد غوغيل يعرف، على سبيل المثال، ميخائيل بوغودين، البروفسور في جامعة موسكو والناشر والصحفي وصديق بوشكين وصديق غوغول؟ لا، غوغيل لا يعرفه. ولا يعرف أيضاً والد بيكر إيفان أوستينوفيتش، الذي خدم غوغول الشاب تحت قيادته في وزارة اقتصاد الدولة والمباني العامَّة التابعة لوزارة الشؤون الداخلية في عام ١٨٢٩. وغيره العديد من الشخصيات المعروفة المهمَّة الأخرى، الذين درسوا، على سبيل المثال، في مدينة نيجن في روسية الصغرى[١]، في مدرسة العلوم العليا للأمير بيزبورودكو، لا يعرفهم على الإطلاق. هو يعرف فقط - من قبل المعجزة -عائلة أكساكوف، التي يرتبط بيكر بعلاقة صداقة معها أيضاً...

(١) كانت أوكرانيا الحالية تسمى سابقاً روسيا الصغرى. (المترجم).

في ١٧ تشرين الأوَّل، تصل العربة إلى موسكو.

في اليوم نفسه، في فناء مكتب موسكو للسفر والنقل في شارع مياسنيتسكايا، خرجَ نيكولاي فاسيليفيتش من عربة السفر إلى الهواء الطلق. انتهت رحلته التي استمرت ٧٢ يوماً من روما إلى موسكو مروراً بفلورنسا وجنوة ودوسلدورف وفرانكفورت على الماين وغاناو ودريسدن وبرلين وسانت بطرسبرغ. جاء غوغول لطباعة «النفوس الميتة».

توجَّه نيكولاي فاسيليفيتش مباشرة من مكتب السفر إلى منزل ميخائيل بوغودين في ديفيتشي بولي، إلى ملجئه المعتاد في موسكو (في ذلك الوقت). في اليوم التالي، يزور منزل عائلة أكساكوف بالقرب من سوق سمولينسكي. وفي اليوم الذي يليه - أيضاً. وأيضاً الذي يليه... في أحد الأيام - وهو الأمر الذي كان حتمياً - يظهر غوغول في منزل عائلة أكساكوف في الوقت نفسه مع المدفعي بيكر.

يكتب أكساكوف: «بعد وصوله إلى موسكو، زارنا بيكر مباشرة. جرى الحديث عن غوغول، وأبدى الضيف من سانت بطرسبرغ رغبة شديدة برؤيته. قلت له إن ذلك من السهل جداً، لأن غوغول يزورني يومياً تقريباً. بعد بضع دقائق، يدخل غوغول بمشيته التي كانت وقتها

لا تزال حيويَّة ونشيطة. عرَّفته على ضيفي، وماذا بعد ذلك؟ إنَّه يتعرَّف في غوغول على جاره في السفر غوغيل الذي لا يطاق».

غضب بيكر. ينقل كاتب المذكرات سؤاله المهتاج: «لماذا خدعه غوغول لمدَّة ثلاثة أيام؟». شعر بيكر بالإهانة والانزعاج. سارع أصحاب المنزل إلى تهدئته. بدؤوا يؤكِّدون له أنَّه لم يكن هناك شيء فظيع فيما حدث، وأن ذلك مجرَّد «خيال بريء»، وأن «غوغول يفعل ذلك مع الجميع». وبفضل الجهود المشتركة هدأ الضيف المحبط، حتّى إنَّهم أجلسوا رفيقي السفر السابقين لتناول الغداء معاً، ابتهاجاً بالنتيجة السلمية التي انتهت إليها القضية، لم يناقش أكساكوف بعض الأمور الشاذة الملفتة للنظر.

إذا كانت ثقة بيكر المبدئية أنَّ لا أحد آخر غير غوغول كان يجلس بجانبه في العربة، عظيمة جداً لدرجة أنَّها عبَّرت عن نفسها بإظهار الفرح بشكل علني بسبب ذلك، إذا كان يشك في شخصية غوغيل الغامضة لدرجة أنَّه دون خجل طرح الأسئلة الإيحائية على زميل السفر: حول عائلة أكساكوف، وحول بوغودين - التي تشير مباشرة إلى شخصية غوغول (أبلغت عن أسئلة بيكر هذه ابنة أكساكوف فيرا في رسالة إلى قريبتها ماريا كارتاشيفسكايا)، إذا كان كل شيء على هذا النحو تماماً- أي أنَّ غوغول تظاهر، بلا رحمة

وبسخرية، هذا يعني أن بيكر اشتبه طول الطريق بألم وانزعاج أنَّه يتعامل مع مدَّعٍ، فلماذا لم يبدِّد ابن عضو مجلس الشيوخ كلَّ الشكوك والأوهام، ولو كان ذلك من أجل الهدوء الداخلي فقط.

كان بمقدور بيكر أن يعرف بسهولة الاسم الحقيقي لزميل سفره. أولاً، من مرافق العربة، الذي كانت لديه قائمة دقيقة بأسماء جميع الركاب معه، وثانياً، من أيِّ مدير محطة في أيٍّ من المحطات الأربع والعشرين البريدية الموجودة على الطريق إلى العاصمة، بدءاً من صوفيا وانتهاء بخيمكي، حيث يجري نسخ وثائق جميع المسافرين بدقَّة في كتاب شبك بخيط أثناء خروجهم من العربة وتناول الطعام.

وأخيراً، من الغريب جداً أن بيكر، الذي تخرَّج من معهد بطرسبورغ للمدفعية في عام ١٨٣٣، لم يكن على معرفة بأحفاد هاينريش غوغيل قليلي العدد، والذي جاء إلى روسيا من مقاطعة مونبيليار الفرنكوفونية خلال حكم يكاترينا العظيمة، وعلى وجه الخصوص لم يكن معروفاً له إيفان غريغوريفيتش غوغيل، الجنرال في المدفعية، ونائب مدير إدارة المدفعية بوزارة الحربية ومؤلِّف الكتب التعليمية حول المدفعية، الذي توفي عام ١٨٣٤، والذي كان الوحيد من عائلة غوغيل مناسباً حسب العمر و(تاريخ الوفاة) لأن يكون الأب الذي توفي مؤخراً لغوغيل اليتيم الذي كان معه في العربة.

ومع ذلك، كان يجب على نيكولاي ياكوفليفيتش بروكوبوفيتش عند كشف أمر غوغول الآخر أن يركِّز لا على هذه الغرابة الجانبية، بل على الغرابة الأساسية المتمثلة بوجود غوغولين اثنين، أحدهما اليتيم غوغيل الذي ظهر في خريف عام ١٨٤١ في عربة بالعاصمة مع بيكر، والآخر غوغيل البائس لبينكندورف الذي ظهر في الشتاء التالي في تقرير رسمي لهذا المسؤول ...

ولكن كان هناك أيضاً غونول، الذي ظهر في محطة بريد خيمكي أواخر ربيع عام ١٨٤٢. ففي صباح يوم ٢٣ أيار ذهب سيرغي أكساكوف وابناه، غريغوري وكونستنتين، في عربة ذات أربعة مقاعد لوداع غوغول في أوَّل محطة على الطريق كما كان معتاداً، خلال عودته إلى الخارج عبر بطرسبورغ - غوغول نيكولاي فاسيليفيتش بالتحديد. ومع ذلك فإن الذي جرى توديعه عندما جلس في عربة مستأجرة بمحطة خيمكي لم يقدِّم نفسه إلى الجار العسكري «ضخم الجثة غير الطبيعية» في كابينة العربة على أنه غونول فحسب، بل سجَّل نفسه دون تردُّد غونول في قائمة المرافق، مع معرفته الجيدة أنَّ المرافق نفسه والحراس على الحواجز ومديري المحطات الأربع والعشرين الذين يقومون في الخدمة على طريق سانت بطرسبورغ سيقارنون بالتأكيد الكنية في القائمة مع الكنية في جواز السفر.

وكان هناك غوغو أيضاً، أطلق خادم ليف أرنولدي مثل هذه الكنية على الشخص الذي كان يرتدي المعطف الأخضر الصوفي السميك والقبعة الدائرية الرمادية والذي سافر معهما صيف عام ١٨٤٩ من موسكو إلى كالوغا.عبثاً حاول أرنولدي أن يشرح لخادمه الفرنسي المسكوفي ذي الأخلاق الجيدة أن كنية هذا الشخص- غوغول وليس غوغو. الفرنسي الذي كان يجلس بجانب السائق على المقعد المرتفع في العربة القديمة اعتذر، ربما بشدَّة، لأنَّ كلمة «غوغو» تعني باللغة الفرنسية الغبي، ولكنه عاد مرَّة أخرى ليكرِّرها، ليس فقط في غضون يومين من السفر (سافرا لزيارة زوجة حاكم كالوغا الكساندرا أوسيبوفنا سميرنوفا، التي كانت أخت أرنولدي من أمه)، ولكن خلال شهر كامل، وهم في ضيافة منزل الحاكم، لم يكن الخادم يطلق على الشخص الذي جاء مع سيده إلى كالوغا سوى سيد غوغو(«m-r Gogo»).

كان من الجيد لبروكوبوفيتش أن يعرف أنَّ ثمَّة غوغول آخر غير معروف جيداً، زار بين ١٥ حزيران و٢١ تموز عام ١٨٣٧ إسبانيا والبرتغال اللتين لم يسافر إليهما أبداً غوغول المعروف جيداً.

صادف كونستنتين أكساكوف غوغول الإسباني البرتغالي هذا في موسكو، الذي كتب إلى إخوته الأصغر في ٣٠ أيلول عام ١٨٣٩:

«غوغول، غوغول! أخيراً هو هنا الآن! ... تخيَّلوا بأنَّه كان في إسبانيا خلال الحرب الداخلية، وأيضاً في لشبونة».

التقت الكساندرا أوسيبوفنا سميرنوفا الزائر الغامض لبرشلونة ومدريد ولشبونة أيضاً في بادن- بادن في آب عام ١٨٣٧إذ تذكر: «في إحدى المرات تحدثنا عن وسائل الراحة المختلفة خلال الرحلات، وقال لي إن أسوأ شيء بهذا الخصوص في البرتغال ونصحني بعدم السفر إلى هناك». كيف تعرفون ذلك، نيك <ولاي> فاس<سيليفتش>؟ - سألته

- «أجاب بهدوء: كنت هناك، وصلت إلى هناك من إسبانيا، حيث الخانات مثيرة للاشمئزاز أيضاً».

في تعليقات الباحثين على هذه القصة التي أوردتها كاتبة المذكرات يقال بإيجاز: «واقعة إقامة غوغول في إسبانيا والبرتغال لم تثبت ولم يَجْرِ توثيقها».

كان من المفيد «للأحمر» أن تكون لديه فكرة عن مثل هذا الغوغول غير المسبوق، والذي أرسل في ٢٦ أيلول عام ١٨٣٩ رسالة من تريست إلى ماريا إيفانوفنا غوغول- يانوفسكايا في قرية فاسيليفكا، في الوقت الذي شوهد فيه غوغول في موسكو، فقد رآه هنا شيبكين وبوغودين وجميع أفراد أسرة أكساكوف.

أحد هذين الغوغولين، الشخص الذي، وفقاً لخاتم بريد تريست الموجود على قفا الرسالة، كان على بعد ألفين وخمسمئة ميل من موسكو، فقد أبلغ: «أنا أعيش في تريست، حيث بدأت أخذ الحمامات البحرية <...> إذا قررت أن أكون في روسيا، فهذا لن يكون قبل تشرين الثاني، وهذا إذا وجدت فرصة مناسبة لذلك، وإذا كانت هذه الرحلة لن تجعلني مفلساً». لقد أبلغ ماريا إيفانوفنا بحيوية أنَّه ينوي التوجُّه إلى فيينا («حتّى أكون بالقرب منك»)، ووصف بحيوية ميناء مملكة هابسبورغ: «تريست مدينة تجارية تغلي، حيث نصف سكانها إيطاليون والنصف الآخر سلافيان يتحدَّثون اللغة الروسية تقريباً، لغة قريبة جداً من لغتنا في روسيا الصغرى. أمامي البحر الأدرياتيكي الجميل، الذي حملت أمواجه لي الصحة».

أمّا غوغول الآخر، الأكثر كآبةً والأقل ميلاً إلى التمتُّع بالصحة، فكتب في اليوم التالي، أي ٢٧أيلول ١٨٣٩، إلى بليتنيف في سانت بطرسبورغ: «أنا في موسكو».

غوغول تريست – الذي سبح في البحر الأدرياتيكي - سرعان ما ظهر في عاصمة الإمبراطورية النمساوية. طارت رسالة غوغول هذا

مع إشارة «فيينا» في أعلى النص إلى قرية فاسيليفكا في مقاطعة بولتافا في الإمبراطورية الروسية. «سأرحل اليوم إلى روسيا، سأكون في غضون شهر ونصف أو شهرين في سانت بطرسبورغ، وبعد أسبوعين من ذلك سأكون في موسكو»، - كتب غوغول فيينا إلى ماريا إيفانوفنا غوغول - يانوفسكايا في ٢٦ تشرين الأوَّل عام ١٨٣٩.

وفي اليوم نفسه أرسل غوغول موسكو مذكَّرة من ستِّ كلمات إلى سيرغي أكساكوف في منزل بوغودين: «أنت على حق، سأكون جاهزاً خلال ساعة». بعد ساعة سافر غوغول هذا ومعه حقيبة صغيرة ومحفظة كبيرة للمخطوطات (هذه كل أمتعته على جميع طرق العالم) كان في مكتب العربات في شارع مياسنيتسكايا، وبعد أربعة أيام كان بالفعل في سانت بطرسبورغ. كانت مذكَّرته القصيرة ردّاً على رسالة أكساكوف، التي جرى الحديث فيها عن السفر معاً من موسكو إلى العاصمة الشمالية: «أرى من الأنسب المغادرة في هذه اللحظة، على كل حال، أخطرني عزيزي نيكولاي فاسيليفتش، كما تقرِّر، فليكن».

في العمل الشهير لفلاديمير شينروك «مواد لسيرة غوغول» (موسكو، ١٨٩٢ - ١٨٩٧)، جرى تخصيص فصل كامل للتحليل

المنطقي والواقعي لتاريخ فيينا - تريست. أحد كتّاب السيرة الذاتية «لا يخفي حيرته». يناقش شينروك وفق هذا الشكل: «بهذا الشكل تبيَّن خلال شهري أيلول وتشرين الأول عام ١٨٣٩، أن غوغول وفقاً لتواريخ رسائله ووفقاً لشهادات مختلفة من معاصريه، كان موجوداً في الوقت نفسه في روسيا والخارج، في موسكو وفي تريست».

من المحتمل جداً أن يكون بروكوبوفيتش قد وافق عن طيب خاطر على فكرة السيرة اللاحقة، بأنَّه على الرغم من الإشارات التي وضعها غوغول «تريست» و«فيينا» و«الخاتم البريدي» المرسوم بدقَّة (أيضاً بواسطة غوغول الماهر) لمدينة تريست الحرَّة، فإنَّ الرسائل لم تكتب في تريست ولا في فيينا أبداً، وإنَّما في منزل بوغودين على ديفيتشي بولي في موسكو. من الممكن أيضاً أن نيكولاي ياكوفليفيتش، الذي وافق على ذلك، أغمض عينيه في هذه اللحظة عن القصَّة الغريبة، حتّى لا يبحث فيها عن غوغول الآخر بحماس مفرط وهو ما يتعارض مع طبيعته.

ولكن كانت هناك قصَّة أكثر غرابة اشترك فيها بروكوبوفيتش نفسه، وجرت في أيار عام ١٨٤٦.

-٥-

بعد أن غادر إيطاليا متجهاً إلى أوروبا وراء جبال الألب دون هدف واضح (كتب في ٥ أيار إلى أكساكوف: أغادر روما «ذاهب من أجل السفر»)، توقَّف غوغول في باريس، ونزل في فندق Westminster الفخم بشارع rue de la Paix، فقد أعدَّ له الكونت المتدين الكسندر بتروفيتش تولستوي، الذي أصبح صديقاً مقرَّباً له في السنوات الأخيرة، غرفة خاصَّة «مشمسة مع موقد»، و(ابتداء من هذا الربيع حتّى موته لم يستطع غوغول أن يشعر بالدفء، لا بالنار الأرضية ولا السماوية). لقد ظهر هناك أيضاً في باريس مدفوعاً بالحمَّى السياحية بافل أنينكوف، جول، كما كان يسميه غوغول قي مرحلة الشباب في سانت بطرسبورغ، تيمناً باسم الأديب الباريسي جول جانين لفطنة عقله.

عندما علم أنينكوف مصادفة أن نيكولاي فاسيليفيتش في باريس حصل على عنوانه وهرع على الفور إليه في الفندق. لم ير الصديقان بعضهما بعضاً منذ خمس سنوات، منذ صيف عام ١٨٤١، عندما نسخ جول في روما في via Felice أجزاء المجلَّد الأوَّل من «النفوس الميتة» بتوقيع المؤلِّف.

لقد سُرَّ غوغول باللقاء، ولكن فرحته لم تدم طويلاً، إذ تحدَّث «على الفور» و«باستياء» عن شؤون سانت بطرسبورغ، وبدأ يشكو من التباس الحسابات المالية مع الأشخاص الموثوق بهم، والتي برزت بعد نشر مجموعة من أعماله- التي طبعتها دار بورودين المحتالة نفسها تحت إشراف «الأحمر» المهمل. ورداً على ذلك، ودفاعاً عن الصديق المشترك ذكَّر جول نيكولاي فاسيليفيتش بأنَّ «الأحمر» أرسل له في بداية العام الماضي، حوَّالة مالية (tratta) إلى بنك شتيغليتس في سانت بطرسبورغ بمبلغ ٤آلاف روبل.

كان ذلك مبلغاً كبيراً، حوالي ١٦ ألف فرنك، بينما كانت أجرة شقة غوغول في روما في Via Felice، ٢٠ فرنكاً في الشهر.

ومع ذلك، وكما اتضح، فإن نيكولاي فاسيليفيتش لم يستلم هذه الأموال. علاوة على ذلك لم يكن لديه، خلال عام ونصف، أيّ أخبار عن الحوَّالة، سواء من بليتنيف أم من جوكوفسكي اللذين كانا مسؤولين عن شؤونه المالية- الأوَّل في روسيا، والثاني في أوروبا- ولا من بنك هاينة في هامبورغ الذي كان يجب أن يدفع المبلغ، ولا من بروكوبوفيتش نفسه.

سرعان ما غادر غوغول باريس متجهاً إلى بلجيكا، إلى الحدود الغربية للقارة، من أجل أن يجرِّب مرَّة أخرى القوة العلاجية لمياه بحر الشمال الباردة في أوستند، حيث كان سابقاً، وليغادر باريس أنينكوف أيضاً متوجهاً إلى وسط أوروبا عبر فرانكونيا.

في منتصف شهر تموز، يجري لقاء غريب، ينذر بالصدع القادم بين أشخاص مشهورين مشاركين في قصَّة الحوَّالة المفقودة، فأثناء تحرُّكه على طول طريقه، كان السائح الخبير أنينكوف يعرِّج إلى بامبرغ «روما الفرنكونية»، كما كان يطلق على هذه المدينة لماضيها المجيد وهندستها المعمارية الرائعة، ويذهب قبل كل شيء إلى قمَّة دومبيرغ (تل الكاتدرائية) لرؤية الكنيسة، التي تطل على المدينة ومحيطها. ويكتب بعد ذلك ما يلي:

«متعباً ومرهقاً من الملاحظة والتفكير أكثر من المشي نفسه، غادرت الكاتدرائية وعندما بدأت في النزول من الجبل إلى الأسفل رأيت على الطرف الآخر من المنحدر رجلاً يتسلَّق صعوداً سفحَ الجبل يشبه تماماً غوغول مثل قطرتي ماء. افترضت بأنَّ نيكولاي فاسيليفتش موجود الآن في أوستند، وهذا يعني أنّه بعيد عني، وفكَّرت بذهول في لعبة الطبيعة هذه، التي تجعل من أحد سكان مدينة بامبرغ المحترمين شبيهاً تماماً بمؤلف «أمسيات في مزرعة

بالقرب من ديكانكا»، ولكن لم أستطع التفكير مليّاً في هذه الفكرة، حتّى وقف غوغول الحقيقي الواقعي أمامي».

وفي الواقع تبيَّن أنَّ الشخص القادم غوغول الحقيقي، مع العلم كان في البداية من الصعب على أنينكوف أن يصدِّق ذلك، لأنَّ غوغول كان يجب أن يكون في هذا الوقت لا في أعماق القارة، في بامبيرغ، وإنما على أطرافها، في أوستند، حيث لا تبعد المسافة أكثر من يوم واحد بالعربة على الطريق المباشر من باريس. ولكن غوغول بامبيرغ أو الشخص «بالمعطف القصير، والعينين المثبتتين باستمرار على الأرض»، الذي التقى أنينكوف في بامبيرغ، كان ذاهباً إلى البحر للشهر الثاني، وتمكَّن من زيارة فرانكفورت، ووغريفنبرغ، وبراغ، وكارلسباد، لأنَّه «سلك طريقاً عبر النمسا والدانوب»، الأمر الذي يؤكِّد بالطبع أنَّه غوغل الحقيقي، نظراً لأنَّ «غوغول الحقيقي الواقعي» من النادر كان يسلك طريقاً مباشراً خلال السفر.

بشكل أو آخر، يعرِّج نيكولاي فاسيليفتش، في ٢٠ تموز عام ١٨٤٦، وخلال توجهه إلى فلاندرز الغربية عبر طريق معقَّد، مثل رسمة على منشفة مطرزة، على شوالباخ، وهي منتجع للمياه المعدنية بين الغابات والجبال بالقرب من فيسبادن. وفي اليوم نفسه يكتب رسالة إلى

رئيس جامعة سانت بطرسبورغ بيتر بليتنيف، الصديق والناشر الذي قام مثل «الأحمر» بتنفيذ طلبات مهمَّة في روسيا للكاتب المتجوِّل في البلدان الأجنبية، وفي آخر الرسالة يتذكَّر نيكولاي فاسيليفتش فجأة الحوّالة، وفجأة يصبح فضولياً بشأن مصيرها الغامض.

كتب: «التقيت مؤخراً أحد معارفي من سانت بطرسبورغ كنيته أنينكوف، والذي يعرف في الوقت نفسه بروكوبوفيتش، لقد أخبرني أن بروكوبوفيتش أرسل لي في بداية العام السابق ١٨٤٥ أربعة آلاف روبل من الأوراق المالية إلى فرانكفورت، على اسم جوكوفسكي. لم أرَ هذه الأموال بعينيَّ، فلو استلمتها لكنت أرسلتها إليك على الفور. إنني أذكِّر بهذا ليس لإزعاجك مرَّة أخرى بشيء بخصوص هذا الموضوع، ولكن فقط من أجل أن تعرف ذلك».

بعد عشرة أيام، ٣٠ تموز، برزت مسألة بالنسبة للكاتب طغت على الأمور الأخرى الكونيَّة، إذ يرسل نيكولاي فاسيليفتش الجزء الأوَّل من العمل الجديد إلى بليتنيف من شوالباخ بأمر حازم: «دع كل أمورك جانباً»، وابدأ بطباعة هذا الكتاب تحت عنوان: «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء».

في الأشهر التالية، يرسل غوغول من مدينة أوستند الساحلية، التي وصلها، ثمَّ بعد ذلك من فرانكفورت، التي انتقل اليها، إلى

سانت بطرسبورغ، باقي أجزاء «مقاطع مختارة». كل الرسائل المرافقة يملؤها بالتعليمات «حول الكتاب». وجميع أجوبة بليتنيف هي عبارة عن تقارير حول تنفيذ هذه التعليمات. في بعض الأحيان، يدور الحديث بين المتراسلين عن حوّالات مختلفة: أرسل بليتنيف إلى غوغول في الخارج أموالاً مستحقَّة له في روسيا، ولكن ليس بحوّالة شتيغليتس رقم ١٢٠١٧، التي أرسلها بروكوبوفيتش عام ١٨٤٥، تلك الحوّالة الشبح، تختفي تماماً من مراسلات نيكولاي فاسيليفتش وبيوتر الكساندروفيتش، كما لو أن الناشر والمؤلف اتفقا على السكوت عن الأموال التي تلاشت في الهواء.

ولكن في نهاية كانون الثاني عام ١٨٤٧، بعد ستة أشهر من تلقي خبر الأربعة آلاف الغامضة، فجأة يبلغ بليتنيف نيكولاي فاسيليفتش الذي كان يقضي الشتاء في نابولي بمنزل الكونتيسة صوفيا أبراكسينا: «...سأخبرك بالتفاصيل بشأن حوّالة بروكوبوفيتش، التي علمت عنها من أنينكوف والتي كُتبت لي بشأنها».

في بداية عام ١٨٤٥، أرسل بروكوبوفيتش بالفعل حوّالة إلى فرانكفورت باسم جوكوفسكي، ليتم تسليمها لك، محتفظاً بنسخة ثانية (secunda) معه. لقد عدَّ أنك تلقيت الأموال منذ فترة طويلة،

ويجب الافتراض أنَّ هناك نوعاً من الالتباس، فعندما أخبرت بروكوبوفيتش بأنَّك لم تستلم هذه الأموال، أحضر إلي نسخة ثانية من الحوّالة للتأكيد. لقد طلبت من بروكوبوفيتش أن يأخذها معه إلى شتيغليتس، حيث قالوا إنَّه إذا لم يُجرِ فعلاً الاستلام بالنسخة الأولى فيمكن الاستلام بالنسخة الثانية".

بالمعنى الدقيق للكلمة، النسخة الثانية من الحوّالة، التي قدمها بروكوبوفيتش إلى بليتنيف، لا يمكن أن تكون بمثابة وثيقة على وصول الأموال إلى المرسل إليه. وحسب هذه النسخة لا يمكن إثبات ما إذا كان أيّ شخص قد قام بأيِّ إجراءات أو عمليات (بالنسخة الأولى)، وهل جرى استلامها من قبل بنك هايني في هامبورغ، على سبيل المثال، وهل جرى إرسالها باسم جوكوفسكي إلى فرانكفورت وما إلى ذلك. إن وجود نسخة ثانية من الحوّالة لدى بروكوبوفيتش بقيمة ٤٠٠٠ روبل من بنك شتيغليس (المودعة لديه) يؤكِّد فقط أنَّ الحوّالة بهذا المبلغ لم تصدر منفردة وإنَّما كانت نسخة مكرَّرة، نوعاً من الصورة الرمزية، المحسوسة والمرئية المكافئة للجوهر نفسه (يجري قبول جميع النسخ المكرَّرة للدفع، وتصبح جميعها غير صالحة بمجرَّد الدفع بموجب نسخة منها).

بعد توجيه إخبارية عن الحوّالة إلى نيكولاي فاسيليفيتش، كتب بليتنيف رسالة إلى جوكوفسكي في فرانكفورت في اليوم نفسه، يصف فيها للشاعر (ولوكيل غوغول في أوروبا) كلَّ ما هو معروف في ذلك الوقت، وبشكل عام ملابسات القضية المشبوهة، ويطلب منه إمّا أن يستلم أربعة آلاف روبل وفق النسخة الثانية من الحوّالة في بنك هايني وتحويلها إلى غوغول، أو أن "يقوم بتوضيح الأمر برمته له، لنيكولاي فاسيليفيتش، إذا لم يجر استلام الأموال لسبب ما. وبالطبع يرسل بليتنيف مع الرسالة إلى جوكوفسكي النسخة الثانية من الحوّالة التي جرى استلامها من بروكوبوفيتش والتي كان من المفترض أن تحتفظ بالقوَّة الكاملة للوثيقة المالية. «إذا لم يكن قد جرى استلامها بالفعل حسب الوثيقة الأولى».

الرسالة غير المتوقعة من بليتنيف تربك جوكوفسكي، فالشاعر لا يبدي أيّ استخفاف بالقضايا المالية أبداً، ولاسيما الالتباس الذي افترضه بيتر الكساندروفيتش. كان كتاب الحسابات الدرع الموثوق من الملابسات والغموض، والذي كان جوكوفسكي يسجِّل فيه بوضوح بتواريخ دقيقة جميع أفعاله مع الوثائق والرسائل والنقود المتوافرة والأوراق المالية التي مرَّت من بين يديه، فكلّ شيء يقوم به

يندفع إلى كتاب الحسابات، وبعد ذلك إلى الريشة والورقة، وقد كتب في رسالة مؤرخة ١٠ شباط ١٨٤٧، إلى غوغول:

«إلى جانب رسالته، أرسل بليتنيف إلي حوّالة (secunda) لتسليمها إليك، وهو يقول إن هذه الحوّالة (prima) جرى إرسالها إلي بالفعل في كانون الثاني عام ١٨٤٥ من أجلك ولا يوجد حتّى الآن أيّ دليل فيما إذا كنت قد استلمتها في وقت ما. في الواقع لا أتذكَّر أيّ شيء. فيما لو جرى إرسال مثل هذه الحوّالة إلي من أجلك، لجرى تسليمها إليك بالطبع، لقد راجعت كتابي الذي أدوِّن فيه الرسائل المرسلة، ووجدت أنَّه قد سجِّل هناك في ٢٣ كانون الثاني عام ١٨٤٥ إلى غوغول مع رسالة من سميرنوفا وشيريميتفا إلى غوغول، وفي ١٣ كانون الثاني فقط إلى غوغول، وفي ٢١ كانون الثاني ١٨٤٦ إلى غوغول مع حوَّالة . هذا كل شيء. لا أعرف أي شيء عن الحوّالة التي كان يجب أن ترسل من قبل بروكوبوفيتش. ألا تعرف أنت أيَّ شيء عن ذلك؟»

هذا السؤال «ألا تعرف...»- كتبته يد الشاعر بشكل ميكانيكي على الورقة. لم يتوقَّع فاسيلي أندريفيتش على الإطلاق تلقي إجابة عنه. كان يعرف جيداً أنَّ نيكولاي فاسيليفتش لا يمكنه معرفة أي

شيء. في سطر تال، كما لو أنَّه كان يتوقَّع أنَّه لن يكون هناك جواب واضح حول قضيَّة الحوّالة من مؤلف «النفوس الميتة»، كتب هو نفسه: «في كل هذه المسائل، يا عزيزي، لا تلتزم الدقة المناسبة».

لكن الجواب جاء.

وكان هذا هو الجواب الدقيق. كان هذا هو الجواب الواضح. لقد كان جواباً يستدعي حفظه عن ظهر قلب من قبل نيكولاي ياكوفليفيتش بروكوبوفيتش، فالحديث هنا يدور عن مهمَّته.

كتب غوغول ٤ آذار ١٨٤٧ من مدينة نابولي، من قصر Palazzo Ferrandini المستأجر من قبل الكونتيسة صوفيا أبراكسينا، إلى جوكوفسكي في فرانكفورت على الماين:

«تلقيت من بليتنيف إشعاراً بأنَّه جرى إرسال حوّالة إلي قبل سنتين من قبل بروكوبوفيتش إلى فرانكفورت. ربما استلم هذه الحوّالة أيّ غوغول آخر بدلاً منّي، لأنَّ أحد هؤلاء ظهر في فرانكفورت خلال إقامتنا معاً هناك، وأحياناً كثيرة كان يستلم رسائلي بدلاً منّي».

بعد يومين - في ٦ آذار - قدَّم نيكولاي فاسيليفيتش تقريراً عن الحوّالة المختفية لبيتر بليتنيف، كتب له إلى سانت بطرسبرغ:

«أمّا بالنسبة لحوّالة بروكوبوفيتش، فمن المحتمل أنَّه جرى استلامها من قبل أحد آخر. تحتاج إلى أن تعرف أنَّه في فرانكفورت، خلال إقامتنا مع جوكوفسكي، ظهر جوكوفسكي آخر وغوغول آخر. غالباً ما تلقّى هؤلاء السادة رسائلنا. أيّاً كانت نوعية غوغول الآخر هذا أو اللا غوغول، الذي استخدم المال، فإنَّه كان بلا شك شخصاً فاسقاً ومفلساً، وهذا يعني أنَّه الآن ما يزال فاسقاً ومفلساً، لأنَّه كان يجب جمعها إمّا من أسرة تعيسة أو من الأقارب، لا سمح الله. لقد طلبت من جوكوفسكي أن يعرف ذلك، ولكن على ألّا يجبره على دفعها إذا كان ذلك ممكناً».

في الواقع غوغول «هذا» طلب من جوكوفسكي «ذاك» عدم الملاحقة القانونية لغوغول «الآخر». هذه الرغبة شرحها نيكولاي فاسيليفيتش لفاسيلي أندرييفيتش في رسالة آذار على الشكل التالي: «... قد يكون من الممكن أن نخلع عنه الثوب الأخير (إن لم يكن الجلد نفسه) أو من زوجته أو أطفاله أو أقربائه، لا سمح الله، ولذلك دع هذا الأمر. يمكنك أن تكتشف ولكن من أجل المسيح لا يجب إجباره على دفعها ولا بأيِّ حال من الأحوال!»

-٦-

النسخة الثانية من الحوّالة رقم ١٢٠١٧ التي أرسلها بليتنيف من سانت بطرسبورغ إلى بنك شتيغليتس، لم يرسلها جوكوفسكي لغوغول في نابولي، كما كان ينوي في البداية. وقرَّر كشف القضية بنفسه، وطلب المساعدة من المستشار الفعلي الخاص، مبعوث الإمبراطورية الروسية إلى الاتحاد الألماني في فرانكفورت على الماين بيتر ياكوفليفيتش أوبري.

سلَّم أوبري، أو أوبريل، كما كان يسميه جوكوفسكي الحوّالة إلى المصرفي الفرانكفورتي أمشيل ماير روتشيلد، من أجل أن يتَّصل بمصرفي هامبورغ كارل هايني، ويستفسر عن الشخص الذي استلم النقود بالحوّالة.

انتظر كلاهما جوكوفسكي وأوبري بفارغ الصبر جواب هامبورغ، وقد جاء بسرعة كبيرة، لأنَّ روتشيلد نفسه سأل عن الحوّالة.

بعد تحقيق كارل هايني في القضية عدَّة أيام (من دون طلب المصرفي المعروف، كان من شأن ذلك حسب كلام جوكوفسكي أن يأخذ الأمر«وقتاً أطول» وربما بكثير)، أرسل إلى أمشيل ماير روتشيلد وثيقة مصرفية رسمية تؤكِّد أنَّه لم يتمُّ خلال عامين سداد

أيّ مدفوعات بالنسخة الأولى من الحوّالة بعد ذلك الوقت الذي أعطى فيه بنك شتيغلتس في سانت بطرسبوغ نسختين من الحوّالة قبل عامين، ومن ثمَّ، فإنَّ النسخة الثانية الموجودة صالحة.

لم تكن هناك حاجة لتحصيل الأموال من «غوغول الآخر»، لم يستلم الأموال بموجب الحوّالة ذات الرقم ١٢٠١٧. ومع ذلك استمر «الالتباس حول هذه الحوّالة وتجوالها المدهش» حسب تعبير نيكولاي فاسيليفيتش.

في بداية شهر آذار عام ١٨٤٧ أرسل المستشار الفعلي الخاص بيتر أوبري بالبريد الدبلوماسي إلى المبعوث فوق العادة والوزير المفوَّض لروسيا في قصر نابولي والمستشار السري ليف بوتوتسكي ظرفاً يحتوي على بيانات حول حوّالة شتيغليس من كارل هايني، والحوّالة نفسها والرسالة الموجهة إلى مصرفي مملكة الصقليتين كالمان ماير روتشيلد من شقيقه أمشيل ماير روتشيلد مع التأكيد أنَّ الوثائق أصلية وأنَّه يمكن تسليم الأموال لغوغول في نابولي.

بعد تلقيه ظرفاً من الوزير بوتوتسكي، توجَّه نيكولاي فاسيليفيتش مع الوثائق إلى كالمان ماير روتشيلد. إلى هذا الوقت لم يكن هناك أيّ شك لدى جوكوفسكي ولا لدى أولئك الأشخاص المهمين الذين

كان لهم يد في تاريخ الحوّالة في أن النقود ستكمل "تجوالها المدهش إلى محفظة غوغول.

لكن حدث شيء ما في البنك لا يمكن تفسيره.

إذ قام كالمان ماير روتشيلد، وبشكل غير متوقَّع، بإلغاء أمر دفع الأموال إلى غوغول بعد دقيقة واحدة.

من الصعب القول ماذا حدث في تلك اللحظة الغامضة من شهر آذار عام ١٨٤٧ في فرع نابولي لبنك روتشيلد، هل بدا غوغول للمصرفي غير غوغول، أي خيِّل له أنَّه ليس غوغول الذي «ظهر في فرانكفورت»، وقام باستلام مراسلات غوغول الذي هو في الواقع «غوغول الآخر»، أو أن «روتشيلد نابولي»، وكما أوضح غوغول لاحقاً لجوكوفسكي، لم يثق (وهو الأمر الأكثر غرابة) بوثيقة هايني من غامبورغ، ولا ضمانة شقيقه في فرانكفورت".

جرتْ إعادة الحوّالة إلى فرانكفورت مع المطالبة بشهادات ووثائق جديدة، ومن فرانكفورت إلى هامبورغ، ومن هامبورغ إلى سانت بطرسبرغ، إذ وصلت مع طلب غوغول من بليتنيف استلام النقود من البارون شتيغليتس، ليظل المصير اللاحق للورقة الثمينة مستحيلاً تتبعه...

الخاتمة

بعد شهرين، وبعد انتظار شمس الربيع لتدفئ جيداً أوروبا وراء جبال الألب الباردة جداً حسب رأيه، انتقل غوغول من نابولي إلى الشمال، ووضع فرانكفورت هدفاً لرحلته.

لقد سافر، كما هو الحال دائماً ببطء وليس عبر أقصر طريق، فقد عرج على روما وتوقَّف فيها، وتحوَّل إلى فلورنسا. وخلال انتظار الباخرة إلى جنوة تنزَّه في مرسيليا، وزار باريس، وأخيراً، في ١٠ حزيران وصل إلى شقَّة جوكوفسكي في بناية زالتسفيديل في فرانكفورت على ضفَّة الماين.

ومن فرانكفورت في ٢٠ حزيران أرسل الرسالة نفسها التي طلب فيها من بروكوبوفيتش البحث عن غوغول الآخر في سانت بطرسبورغ.

لم يبلِّغ نيكولاي فاسيليفتش صديقه في المدرسة عن المعلومات الإضافية حول من هو الذي ليس غوغول، والتي أبلغ عنها جوكوفسكي وبلتنيف في رسائله من نابولي وهي بالتحديد: أن «غوغول الآخر» متزوِّج ولديه أطفال، وأنَّه شخص «فاسق ومفلس» وأنَّه عاش لفترة طويلة في فرانكفورت، إذ أقام صداقة مع «جوكوفسكي آخر»...

ولكن يبدو أنَّ «الأحمر» لا يحتاج إلى أيِّ معلومات إضافية، إذ بحث مسألة غوغول الآخر بسرعة ودون تردُّد. وكان تقريره المليء بالحيوية لنيكولاي فاسيليفيتش في ٢٧شهر حزيران، والذي يصوِّر فيه إنجازات خيالية على الشكل التالي: «لقد نفذت ما كلفتني إياه بخصوص الشخص الآخر الذي ظهر هنا ويحمل كنيتك نفسها، وفقاً لقولك، ولكن لم يعثر على آثار له هنا، ولم يسمع أحد في سانت - بطرسبورغ عن شيء من هذا القبيل، ولا أعرف من أين أتتك هذه الأخبار. ومع ذلك ولأخذ الحيطة، طلبت من مدير مكتب وكالة يازيكوف تحذير جميع بائعي الكتب، التي لها علاقة بهم جميعاً. صديقك المخلص بروكوبوفيتش».

لم يكتب غوغول من ٢٢ حزيران وحتّى ٧ تموز ولا رسالة واحدة. لقد استولى عليه بالكامل العمل على «اعترافات مؤلِّف»، ووصل في أيام الصيف تلك بالتحديد إلى منتصف العمل الذي يخصُّ مكنونه العميق، فكتب:

«لم أبتكر قط أيَّ شيء من مخيلتي، ولم أمتلك هذه الخاصيّة. ولم يصدر لي شيء جيد إلّا الذي أخذته من الواقع، من البيانات المعروفة لي».

لم يرد على بروكوبوفيتش، لم يتبق له أيَّ قوَّة للكتابة.

غوغول والموت

توفي غوغول من الأدب، توفي من «النفوس الميتة».

ومنذ البداية تكشَّفت له ثلاث خصائص لهذه القصيدة:

١) الضخامة المهيبة.

٢) البعد الدائم عن النهاية. ٣) الانتماء الجيني إلى السماء.

غير معروفة الساعة التي جرى فيها الاكتشاف، معروف اليوم ١٢ تشرين الثاني عام ١٨٣٦. هذا التاريخ مشار إليه في رسالة غوغول إلى جوكوفسكي التي أرسلت من باريس. تقول الرسالة عن القصيدة:

«عملي الإبداعي ضخم وعظيم، ولن تكون نهايته قريبة، أحد ما غير مرئي يكتب أمامي بعصا جبارة».

لقد كتب ذلك بذهن صاف وبهجة. لم يكن هناك أيّ علامة على اليأس أو الخوف من الضخامة، والسماوية واللانهاية. لقد كان غوغول في حالة إلهام، لأنَّ الإبداع يتدفَّق، وغوغول يكتب بسلاسة، فقد أبلغ جوكوفسكي في الرسالة نفسها إن («الموتى» يتدفقون أحياء).

من المعروف الآن أنَّ القصيدة لم تتدفَّق دائماً كما في باريس عام ١٨٣٦ والسنوات الأربع التي تلتها في روما.

تدفقت «النفوس الميتة» في أوقات مختلفة وفي مدن أوروبا المختلفة بشكل مختلف نحو النهاية بعيدة المنال، وفي أحيان أخرى لم تتدفَّق على الإطلاق. ولكن بغض النظر عمّا حدث للقصيدة التي ولدتها السماء على الأرض- في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وروسيا- كان غوغول يعلم جيداً بأنَّه يعمل. ويجهد. يكتب «النفوس الميتة». دائماً وفي كل مكان. ولم يكن غوغول وحده من يعرف فقط. الجميع كان يعرف ذلك.

تدفَّقت القصيدة منذ منتصف الأربعينيات بشكل، توقَّف غوغول عن الإيمان بالعمل، فالإيمان بالعمل المنهجي والمقاس والمحسوب واليومي والهادئ، الذي ينقذ الروائيين في كل الأوقات وفي جميع أنحاء العالم، اختفى تماماً من روح غوغول، وظهر هناك إيمان آخر غير مسبوق، عبَّر عنه غوغول في رسالة إلى مجهول، والتي كانت مؤرَّخة عام ١٨٤٦ ووضعت في «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء». وفي حديثه عن أسباب حرق المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، الذي أخذ منه خمس سنوات من العمل، والذي جرى كتابته بمثل هذا التوتر المؤلم" أعلن غوغول:

«أؤمن أنَّه إذا حان الوقت المحدَّد، سينجز ما قضيت فيه خمس سنوات مؤلمة، في غضون أسابيع قليلة».

سيجري إكمال / كتابة مجلَّد كامل من الإبداع العظيم، لا في غضون بضع سنوات، كما كان متوقعاً من قبل، بل في غضون أسابيع قليلة.

كيف ذلك؟

بالطبع، لا يمكن نفي أنَّ لدى الله وسائلَ مختلفة للتأثير في عالمه، بما في ذلك تلك التي تجعل الناس يتحدَّثون عن الظواهر المدهشة.

كان يجب أن تكتب «النفوس الميتة»، كان يجب أن تكتب بسرعة ودون عراقيل، لأنَّها يجب ألّا تكتب بقوَّة العمل اليومي، وإنَّما بقوَّة المعجزة الإلهية التي تحدث في «وقت معيَّن».

كانت هذه هي الخاصيَّة الرابعة للقصيدة، التي تجلَّت لغوغول والتي، ربما، لم تظهر دائماً بشكل كامل.

لقد ظهر شيء مختلف تماماً.

في ربيع عام ١٨٤٥، كتب نيكولاي فاسيليفيتش في رسالة من فرانكفورت إلى صديقة روحه، وصيفة البلاط ، زوجة حاكم كالوغا - الكساندرا أوسيبوفنا سميرنوفا:

«أخذ الله مني القدرة على الإبداع مدَّة طويلة».

بدأ موت غوغول بالتحديد منذ ذاك الوقت.

الصورة الخارجية لوفاته، أي الطريقة التي سيموت فيها، حدَّدها غوغول عن غير قصد في شبابه بريشة تخمِين أو استحضار، في قصَّة «ملَّاك أيام زمان».

كانت الشخصيات الرئيسة، بولخيريا ايفانوفنا وأفاناسي ايفانوفيتش، تموت من لا شيء، أو كما كان سيقول الدكتور تاراسينكوف، الذي شارك في الإنقاذ الطبي لغوغول المحتضر، من «ثقة لا تتزعزع بالموت الوشيك».

«أنا أعرف أنَّني سأموت هذا الصيف»، هكذا قالت بولخيريا ايفانوفنا لزوجها، وأكَّدت له خلال ذلك، أنَّها ليست مريضة بأيِّ شيء.

«يجب أن تتركني، أعلم أنني يجب أن أموت»، هكذا قال غوغول يوم الخميس ١٤ شباط عام ١٨٥٢، قبل أسبوع من وفاته، في الوقت الذي كان فيه تاراسينكوف المحتار لا يستطيع اكتشاف «أيّ أعراض موضوعية يمكن أن تشير إلى معاناة كبيرة»، ويبقى أكثر الأعراض وضوحاً، هو النمط الثابت نفسه: يرقد غوغول على الأريكة في كامل وعيه، ولا يجيب عن أسئلة الأطباء («مرتدياً

مريلته ومنتعلاً حذاءه، مستلقياً على جانبه باتجاه الحائط وعيناه مغمضتان»، كما يسرد الطبيب التفاصيل باهتمام كبير، كما لو أنَّها ستكون مفيدة في التشخيص).

دون أدنى شك في أنَّ ذلك يمكن أن يكون، وصف غوغول في «ملّاك أيام زمان» هذا اليقين الغريب بالموت، الذي يؤدي إلى الموت متجاوزاً الأسباب الطبية:

«كانت ثقتها بنهايتها الوشيكة قويَّة لدرجة كبيرة وكانت حالتها النفسية مهيأة لذلك لدرجة أنَّها في الواقع بعد أيام قليلة استلقت على السرير ولم يعد بإمكانها تناول أيَّ طعام.<...> لم تقل بولخيريا ايفانوفنا شيئاً. وأخيراً، بعد صمت طويل، وكأنها كانت تريد أن تقول شيئاً، حرَّكت شفتيها، ولفظت أنفاسها».

المعاصرون الذين رأوا غوغول قبل أيام من وفاته، لم يكونوا قادرين على تصديق إمكانيَّة حدوث مثل هذه النهاية .

«مع ذلك، لم يبد ضعيفاً لدرجة أنَّه عندما تنظر إليه تعتقد أنَّه سيموت قريباً. غالباً ما كان ينهض من الفراش ويتجوَّل في الغرفة كما لو أنَّه بصحة جيدة»، - كما يقول نيكولاي بيرغ.

يردِّد ستيبان شيفيريف: «بدت لي حالته على أنَّها كآبة أكثر من كونها مرضاً حقيقياً».

ولكن ليس فقط زملاؤه- الكتاب لم يلاحظوا مرض غوغول، وليس فقط الأطباء المؤهلون، بمن فيهم إينوزيمسيف الشهير، «تحدَّثوا عنه بشكل غامض»، بل حتّى الخادمان المعروفان (اللذان وصفهما ليف أرنولد بحماس) كانا ينويان رفع غوغول بالقوَّة وجعله يتمشّى في الغرفة، «هزّاه» و«حركاه» من أجل أن «يستيقظ» و«ويتمنّى العيش»، شعرا بغريزتهما أنّه لا يوجد مرض هنا: «أيّ مرض لديه ... لا يوجد أيّ مرض، ببساطة هكذا...».

أولئك الذين زاروا منزل الكونت الكسندر تولستوي في شارع نيكيتسكي في أيام شباط من عام ١٨٥٢ لم يكونوا فقط في حالة ارتباك كامل، بل ساحق. كان من المستحيل فهم ما كان يحدث لغوغول، لماذا هو، وفقاً لكلماته الملحَّة ، قريب من الموت؟! (وهل كان قريباً حقاً؟!). لكن الكلمات كانت مؤثِّرة، كما كانت كلمات بولخيريا إيفانوفنا لا تقبل أيّ اعتراض، ولا حتّى المناقشة.

قال غوغول لأليكسي كومياكوف: «يجب أن أموت، وأنا مستعد وسأموت».

لكن الظواهر كانت أيضاً مثيرة.

بعد الاستعداد للموت، الذي لا تعززه «الأعراض الموضوعية»، بدأ فجأة «يظهر»، على حدِّ تعبير ميخائيل بوغودين، «الإنهاك التام»، وبدأت الحياة تغادر فجأة غوغول، كما غادرت تماماً أفاناسي إيفانوفيتش، والذي كان هو نفسه يؤمن، بعد سنوات قليلة من موت زوجته الغريب، بشكل غريب بنهايته الوشيكة، وهو يسير في الحديقة: «لقد استسلم تماماً لقناعته الروحية بأنَّ بولخيريا إيفانوفنا تناديه، لقد استسلم بإرادة طفل مطيع، وجفَّ، وسعل، وذاب وانطفأ أخيراً كما انطفأت الشمعة عندما لم يتبق أيّ شيء يمكن أن يحافظ على لهيبها الضعيف».

بطاعة الموت نفسها ذاب غوغول أيضاً، لم يرغب في قبول المساعدة الطبية والانخراط في أحاديث مع الأصدقاء الذين حاولوا بطريقتهم الخاصَّة «هزَّه» و«تحريكه».

لكن هذه الطاعة لم تظهر على الفور.

لقد قاوم الموت لما يقرب من سبع سنوات، وهو الأمر الذي لم يشك به أصدقاؤه، معتقدين، بالمناسبة، أن المجلد الثاني من «الأرواح الميتة» تجري كتابته بنجاح، بشكل أو آخر، منذ أن أعلن غوغول عن

استمرار كتابة القصيدة في رسالته إلى سيرغي أكساكوف في كانون الأوَّل عام ١٨٤٠، والتي كان يجب أن تكون «أنقى وأعظم» وستتحوَّل إلى «شيء هائل».

منذ ربيع عام ١٨٤٥، عندما كشف غوغول، ما أبلغ عنه سميرنوفا، «سلب الله مني القدرة على الإبداع»، عندها اتضح أن «النفوس الميتة» السماوية قد لا تكتب على الأرض بالشكل المناسب، وعندما جرى اكتشاف أن «الساعة المعيَّنة» الرائعة، التي لا تخضع لقوانين الوقت الدنيويَّة وقواعد «العمل المؤلم»، يمكن ألّا تأتي لفترة طويلة مميتة، بدأ يقوى في غوغول إلى جانب الإيمان بمعجزة طبيعية، الإيمان بشيء غريب، ليس له علاقة بخصائص القصيدة.

بدأ يعتقد أن «النفوس الميتة» ستتحرَّك من مكانها وتحلِّق إلى ما لا نهاية، وتتغلَّب على الحجم الهائل للمجلد الثاني، بينما أعطي كميَّة كبيرة (**«حزمة» على حدِّ تعبيره**) من المعلومات غير العادية عن روسيا- عن فلاحيها وملّاكي الأراضي فيها، والمرتشين، والمناصب، والهيئات، والمقاطعات.

علاوة على ذلك، وكما تشهد الرسالة، التي أرسلها إلى سميرنوفا شتاء عام ١٨٤٧ من نابولي، استحوذت عليه فكرة، أنَّه دون «معرفة كاملة بالوضع»- أي دون معلومات عن روسيا من زوجة حاكم

كالوغا، ومن الأشخاص الآخرين المقربين والبعيدين- فإنَّ حياته كمبدع، التي تنقذ نفسها بالإبداع، أصبحت غير ممكنة.

كتب إلى آلكسندرا أوسيبوفنا: «إنَّ القدرة على الإبداع هي قدرة عظيمة، إذا جرى إحياؤها بمباركة الله. جزء من هذه القدرة لدي، وأعلم أنني لن أنجو إذا لم أستخدمها كما ينبغي في العمل. ويمكنني استخدامها كما ينبغي في العمل، فقط عندما سيضاء عقلي بالمعرفة الكاملة بالأمر. ولهذا السبب بمثل هذا الجشع أطلب وأبحث عن المعلومات التي تقريباً لا أحد يريد أو يتكاسل في إيصالها».

ولكن حتّى لا يتكاسلوا ويرغبوا، كان يلجأ إمّا إلى المكر أو الدعاء أو إلى نوبات التنويم.

بالطبع، لا يسع المرء إلَّا أن يلاحظ أن هذا الإيمان كان يتناقض بشكل تام ليس فقط مع جوهر «النفوس الميتة»، ولكن مع جوهر مؤلفها بالكامل.

لا يمكن لغوغول أن يخلق إبداعاً من المعلومات.

لقد شهد هو نفسه أنَّه حتّى بوشكين الثاقب لم يدرك حتّى النهاية السمة الرئيسة لموهبته، أن يستخرج الصور من نفسه هو، أي استعادتها إلى الحياة ليس بقوَّة المعلومات الدقيقة التي جرى الحصول عليها

مباشرة من أعماق الواقع، ولكن من خلال قوَّة الحدس الفني التي تربطه مع السماء، إذ يجري تخزين كلمات كلَّ القصائد العظيمة، ومن أين يتراءى فوراً كلّ ملّاك الأراضي والفلاحين والمقاطعات. لكنه استمر في إجبار مراسليه بالحصول على المعلومات التي لا معنى لها بتاتاً وجمعها وإيصالها، لقد أراد أن تتدفَّق المعلومات من أجل «النفوس الميتة» في تيار متواصل وحيوي ومتألِّق، لا ينتهي، تماماً كما تدفَّقت في وقت ما «النفوس الميتة» في باريس وروما.

ومع ذلك، يجب الاعتراف، أنَّه مهما بدا هذا الإيمان دراماتيكياً وحتّى مأساوياً، بما يشبه العمل على ما يشبه القصيدة، إلَّا أنَّه ساعد غوغول على الصمود وإبطاء الموت.

ابتعد سبع سنوات عن الذوبان والانطفاء المطيع، مختبئاً عن «النفوس الميتة» التي لا ترحم، وخصائصها التي يعرف كل شيء عنها تماماً، والتي لم تكن بحاجة إلى أيِّ شيء إلّا لإرادة الله لاستعادة المؤلف «القدرة على الإبداع».

لا يمكن القول في أيِّ وقت بالتحديد انكشف السر لغوغول، وكيف ستنتهي «النفوس الميتة»، أي بالطبع ليس القصيدة نفسها، التي هي غريبة بطبيعتها السماوية حتّى النقطة الأخيرة، ولكن العمل المتعمّق

عليها. ربَّما حدث ذلك منذ البداية الأولى، في ذلك الخريف من عام ١٨٣٦، عندما جرى تأليف الفصول الأولى من المجلد الأوَّل في باريس بإملاء «أحد ما غير مرئي»، أو لاحقاً، في شتاء عام ١٨٤٣ في نيس، عندما خربش غوغول «على الورق» «فوضى» المجلد الثاني، مبتهجاً بالأيام الصافية والخالية من الريح، وكتب بين هذا وذاك في رسالة إلى جوكوفسكي عن الاكتشافات المتعلِّقة بالانغماس في القصيدة:

«عندما تمارس ولو قليلاً علم الإبداع ، تصبح أقرب عدَّة مرّات إلى استيعاب الأسرار العظيمة لخلق الله، وترى أنَّه كلما ذهب الإنسان إلى أبعد من ذلك وتعمَّق في شيء ما سينتهي به الأمر إلى الشيء نفسه: «صلاة كاملة وشاكرة فقط».

نعم هكذا بالتحديد: سينهي الصلاة... بعد «صلاة كاملة وشاكرة»، يأتي بعدها ترك عمل عميق، ويأتي بعد ترك العمل الموت.

في الأيام الأخيرة ، كان غوغول يصلّي كثيراً مدَّة طويلة، ولم يعد يفكر بأيِّ نوع من العمل على القصيدة، بل وأكثر من ذلك في الخلاص من خلال الطب أو المحادثات الوديَّة. كان يعلم جيداً منذ زمن بعيد أنَّ «النفوس الميتة» هي الإبداع الذي يؤدّي إلى الموت إذا توقَّف عن الكتابة.

كانت هذه هي الخاصيَّة الخامسة الرئيسة - للقصيدة.

غوغول والقطة

أغرق غوغول القطَّة في بحرة ماء حتّى لا يكون هناك عالم آخر على الأرض، كانت عينا القطة خضراوين، وقد «لمعتا بنور شرير في الوقت الذي كانت تتسلَّل إلى نيكولاي فاسيليفيتش، كان الشفق يسقط على يانوفشينا ويسود الهدوء.

أرخت القطة مخالبها عندما وضعت كفيها على الألواح الأرضية ما جعله يسمع طرقاً خفيفاً، أضيف إلى طرق المخالب دقّات بندول ساعة الحائط، التي كما شعر غوغول «كانت صوت مرور الزمن إلى الأبدية». كان غوغول حينئذٍ صبيّاً صغيراً، كان نيكوشا.

كانت القطَّة تتمدَّد بتكاسل مقتربة من غوغول، لم تكن تستعجل الاقتراب منه. في تلك الساعة غادر والدا نيكوشا، كما غادرت أيضاً المربيَّة العجوز. كان غوغول وحده في المنزل.

جلس على الأرض بالقرب من الأريكة، وكان ينظر إلى القطَّة، لقد ظهرت في حدود عالمه الحسي، كما لو أنَّها من العدم، ومواؤها «أخلَّ بالهدوء»، هدوء العالم أو غوغول- لا يهم، فعندما روى

غوغول القصَّة عبَّر عن ذلك بهذا الشكل: «مواء القطة أخلَّ بالهدوء الذي أثقل علي».

«أثقل» - هذا مهم. كان من الأسهل القلق».

دفع القلق نيكوشا ذا السنوات الخمس إلى الصعود على الأريكة - لقد «أصابه الفزع». ولكن في الدقيقة التالية، عندما ساد القلق بكامل قوَّته ودمَّر ضباب الهدوء، قفز غوغول من الأريكة، وأمسك بالقطَّة، وركض بها إلى البستان، وألقى الحيوان في البحرة.

ثم ضغط على القطَّة في الماء بعصاً طويلة، حتّى لا تسبح إلى الشط، حتّى ينخفض في العالم «الضوء الشرير»، الذي كان يلمع في عينيها الخضراوين.

القطَّة لم تخرج... لقد اختفت دون أن تترك أثراً في مياه بحرة عزبة فاسيليفكا. ولكن «الضوء الشرير» الهائل والرائع بقي في عالم غوغول إلى الأبد.

الضوء في كل مكان. يومض بريقاً باهراً في «مُلاك أيام زمان»، إذ يُدعى «الروح الشريرة»:

«إنَّني أحياناً أحبُّ أن أدخل لدقيقة في جوِّ هذه الحياة المنعزلة غير العادية، إذ لا تطير أيّ رغبة وراء سياج من الأوتاد المحيط بفناء

صغير فوق سياج بستان مملوء بأشجار التفاح والخوخ، وراء أكواخ القرية المحيطة به، والتي تميل على الجانب بظل الصفصاف والبيلسان والإجاص. حياة أصحابها المتواضعين هادئة، هادئة لدرجة أنك تنسى نفسك للحظة، وتفكِّر في أنَّ العواطف والرغبات والمخلوقات المضطربة للروح الشريرة التي تقلق العالم لا وجود لها على الإطلاق، وأنَّك رأيتها أنت فقط حلماً لامعاً ومتلألئاً».

الضوء، الذي يسمّى «الروح الجهنمية»، يضيء في «شارع نيفسكي».

«كانت الجميلة التي سحرت بيسكاريف المسكين بالفعل ظاهرة رائعة وغير عادية <...> كانت ستظهر بمظهر إلهة في قاعة مزدحمة على أرضية خشبية فاتحة اللون، وعند لمعان الشموع وعند الخشوع الصامت لجمهور المعجبين بها، الذين سقطوا عند قدميها ولكن - للأسف! كانت نوعاً من الإرادة الرهيبة للروح الجهنميَّة، المتلهفة لتدمير تناغم الحياة، والتي ألقت بها مع قهقهة في هاويتها».

الضوء يحترق، حي ورهيب - في «النفوس الميتة»، متظاهراً بأنَّه إضاءة هامدة خالية من الحياة.

«تتألَّق المسارح، حفلات الرقص طوال الليل، والحديقة المزيَّنة بالأضواء والأطباق والمليئة بصوت رعد الموسيقا. نصف سكان

المقاطعة يرتدون أفخر ملابسهم ويتمشون مرحين تحت الأشجار، ولا أحد منهم يرى في هذه الإضاءة العنيفة شيئاً من التوحُّش والتهديد عندما يقفز غصن من الكثافة الشجرية بشكل مسرحي، مضاءٌ بنور مزيَّف، محرومٌ من خضرته الزاهية، ليكون من الأعلى أكثر قتامة وقسوة وأكثر هالة بعشرين ضعفاً يبرز من خلال تلك السماء الليلية، ولا تستاء قمم الأشجار الصارمة التي ترفرف أوراقها بعيداً إلى الأعلى ومغادرة إلى العمق في الظلام الدامس، من هذا اللمعان الباهر الذي ينير جذورها من الأسفل».

أثمن ما يسحر في سرديات غوغول هو الشعور المسبق بالصراع الهائل بين «الروح الجهنمية» و«تناغم الحياة»، الصراع الذي يولّد انفجارات هائلة، وومضات من الضوء وزوابع من الطاقة التي تنقذ الكون من الهدوء الثقيل. من حالة التوازن. من الموت.

كانت روح غوغول تلك المنطقة الغامضة، إذ قوى السماء وقوى الجحيم - الانسجام الإلهي و«مخلوقات لا تهدأ لروح شريرة تزعج العالم» - تقترب من بعضها مثل السحب المكهربة، التي تسبِّب حدوث صواعق البرق، «أحلام رائعة ومتلألئة» مثل، على سبيل المثال ، «ڤيي» أو «الأنف».

كان إغراق القطَّة، بالطبع، حدثاً حقيقياً، ولكنَّه، في الوقت نفسه، كان حدثاً مليئاً «بالبريق» و«اللمعان» الحالم.

كانت القطَّة ونيكوشا يقعان في بعد خاص، خال من الحزن والتقييمات الأخلاقية، فعندما يستمرُّ «قلق العالم» بسبب النور الشيطاني للعيون الخضراء، يجب أن يتذكَّر ذلك أيّ شخص يقرِّر الحزن والتقييم.

ولكن بمجرَّد توقُّف القلق، بمجرَّد أن هدأت الزوابع وتلاشى الضوء المتلألئ، عاد العالم على الفور مع البحرة وفاسيليفكا والبستان ونيكوشا ذي السنوات الخمس والقطَّة الغريقة إلى حالته الطبيعية، وأصبح متاحاً للحزن والتقييم والدموع.

عندما روى غوغول لوصيفة البلاط الكساندرا أوسيبوفنا سميرنوفا قصَّة القطَّة «والنور الشرير» و«ومرور الزمن إلى الأبدية»، وصف بوضوح مطلق ما حدث له في لحظة «قلق العالم»، وفي اللحظة عندما قام العالم بقفزة عكسية نحو التوازن.

«شعرت بالرعب»، وتسلَّقت الأريكة والتصقت بالحائط. «كيتي، كيتي»... تمتمت وأردت أن أشجع نفسي، قفزت وأمسكت القطَّة التي استسلمت بسهولة ليدي، وركضت إلى الحديقة، إذ رميتها في

البحرة، دفعتها عدَّة مرات بعصاً طويلة عندما حاولت أن تسبح وتخرج إلى الشط، كنت خائفاً وكنت أرتجف، ولكن في الوقت نفسه شعرت ببعض الرضا، ربما الانتقام لأنَّها أخافتني. ولكن عندما غرقت واختفت آخر دوائر الماء، وساد هدوء تام وصمت، شعرت فجأة بالأسف الشديد على «كيتي». لقد شعرت بتأنيب الضمير، لقد خيِّل إلي أنَّني أغرقت إنساناً. بكيت بشدَّة ولم أهدأ إلّا عندما جلدني والدي الذي اعترفت له بفعلتي».

لم يكن «الهدوء التام» الذي ساد بعد موت القطَّة في البحرة، و«الهدوء الثقيل» الذي ساد قبل ظهورها في المنزل، من طبيعة مشتركة. كان هذا هدوءاً واحداً. الهدوء نفسه- صعب التحمُّل، لكنَّه مع ذلك منح فترة راحة مؤقتة لروح نيكولاي فاسيليفتش المختارة لصراع القوى الكونية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغول والمجلد الثاني

انتهى الصراع غير المسبوق في تاريخ الفن العالمي بين الإبداع ومبدعه الذي استمر عشر سنوات، وانتهى بمعركة قاتلة في نهاية شتاء عام ١٨٥٢ في منزل تاليزين في شارع نيكيتسكي في موسكو. لقد تعاملت «النفوس الميتة» مع غوغول بقسوة، تحوَّل الليل والشمعة وموقد القرميد وسنوات من الجهد إلى رماد، بعد ذلك أصوات وصلوات وتخيلات. الطبيب أوفر والطبيب إيفنيوس. الطبيب كليمينكوف السليط . سكرة الموت. الموت.

لكن حتّى الإبداع لم يستطع انتظار الرحمة من خالقه، لو لم يكسر الإبداع في خالقه إرادة العمل، لبناء قصور وراء الرواق- لإنشاء المجلدين الثاني والثالث، المخصصين لموائل «الصور الضخمة».

إن عدم اكتمال «النفوس الميتة» دراما عظيمة، ولكنها دراما المبدع وليس الإبداع.

لم تتوقَّف «النفوس الميتة» حيث أرادت ذلك، وإنّما حيث ذاب الطريق اللاحق. توقَّفت «الروافع المكنونة للقصة المتشعبة» عن

دفعها لأنَّها لم تعد سريَّة. لقد أصبح واضحاً لماذا يشتري تشيتشيكوف النفوس الميتة، ومع هذا الوضوح المبكَّر، اختفت المسافة الغامضة المنيعة للقصيدة.

انتهت القصيدة في الواقع بإظهار جوهر تشيتشيكوف.

إن عدم اكتمال «النفوس الميتة» من أعظم الدراما، لأن «النفوس الميتة» منتهية. انتهت على الرغم من سعي المؤلف إلى المضي بالسرد إلى فضاء لا نهاية له، وراء الأفق مع عربة تشيتشيكوف. هرباً من التوقَّف. هرباً من الموت.

كان الاختلاف بين تشيتشيكوف في المجلد الأوَّل وبين شخصيات القصيدة الأخرى أنَّه بقي أداة المؤلف البصرية وجزءاً من رؤيته المشتقة من حبه، وكان دائماً أقل إثارة للشفقة وأقل غباء وأقل سخافة وأكثر غموضاً. إزالة هذه الاختلافات كانت تشكِّل خطراً على حياة القصيدة.

كانت شخصية تشيتشيكوف مثل شخصية دون كيشوت، لا تنتمي بالكامل إلى الواقع ولا إلى الخيال، ولذلك لا تخضع للتحوّل مع تدفُّق الفكر وإعادة التشكيل مع مرور الوقت.

لم يكن تشيتشيكوف في المجلد الثاني مختلفاً فحسب، بل إنَّه غريب لدرجة مميتة.

كان من المستحيل، دون عواقب وخيمة على كامل جسد «النفوس الميتة»، إدخال مثل تشيتشيكوف هذا الذي توقَّف أن يكون ذا طبيعة متكاملة، المنجذب باطراد إلى مشروعه الشيطاني، الذي بات يحلم ليس بالنفوس الميتة بل بالنفوس الحقيقية، والذي يتحوَّل بشكل غادر إلى أحد ملّاك الأراضي الروس، ويضع سند شراء ملك حقيقي لخلوبويف وفلاحيه الأحياء في صندوق.

تشيتشيكوف، دون تلك الصفات التي جعلت منه تشيتشيكوف، هو الشخصية البارزة في الأدب الروسي، الذي حوِّل قسراً، إذ حاد عن الطريق المتعرِّج الغامض الشرير الذي تدحرجت عربته عليه، إلى الطريق «الآخر» - المستقيم والرائع والفاضل، فقد دمَّر بلا رحمة شعر القصيدة.

«أنا نفسي لست قادراً، ولا أشعر، ولكن أستخدم كلَّ قوتي من أجل أن أجعل الآخرين يشعروا، أنا نفسي سيّئ ولا أعرف أي شيء، ولكن أستخدم كل قوتي لتهيئة الآخرين، أنا نفسي مسيحي سيِّئ، لكني أستخدم كل قوتي حتّى لا يقع أحد تحت تأثير الإغراء.

سأبذل جهدي وسأعمل بعرق جبيني في القرية، وسأعمل بأمانة حتّى يكون لي تأثير جيد على الآخرين. حسناً، كما لو أنني في الواقع غير لائق تماماً. لدي قدرات للإدارة، ولدي صفات التوفير والسرعة والحصافة وحتّى الثبات. يجب فقط اتخاذ القرار».

هكذا يفكِّر تشيتشيكوف"، كما يكتب غوغول.

هكذا فكَّر غوغول.

عملياً زرع المبدع في كلِّ خطوة بالفصول المتبقية من المجلد الثاني أفكاراً ومشاعر غريبة في وعي ونفس بافل إيفانوفيتش:

«بدأت أشعر وأسمع بأنَّني لا أسير بالشكل المناسب وأنَّني حِدْتُ بشكل كبير عن الطريق المستقيم».

«سأشتري ضيعة، وأصبح رب عمل، وسأدخر المال لا لنفسي، ولكن من أجل مساعدة الآخرين، سأفعل الخير بقدر ما أستطيع، سوف أنسى نفسي وجميع أنواع وجبات الطعام في المدينة، وسأعيش حياة رصينة بسيطة».

ولكن تشيتشيكوف، لم يكن ليعيش مع هذه الأفكار والمشاعر المزروعة فيه من الخارج.

كان هذا التشيتشيكوف - الذي اعترف بنفسه تحت تأثير الخطاب الغاضب للحاكم العام بأنَّه وغد والذي رمى نفسه عند قدميه، تشيتشيكوف الذي يقبِّل يد المليونير الورع، منقذ روحه، تشيتشيكوف الذي يشد شعره وفي الوقت نفسه معطفه من فائض المشاعر التائبة، تشيتشيكوف الذي يدق رأسه بالحائط، ويصرخ بصوت عال بأن الشيطان أغراه- كان مجرَّد وهم.

يشير الحدث الذي وقع ليلة ١١-١٢ في شهر شباط عام ١٨٥٢ في شارع نيكيتسكي في مقر إقامة الكونت الكسندر تولستوي، إلى أنَّ القصيدة وغوغول فهما ذلك بوضوح تام.

لم يستطع الفنان إلّا أن يشعر بالرعب من هيكل على شكل بشري، كان في تصنُّعه أكثر شيطانية - شيطانية حقاً- ممّا كان عليه بافل إيفانوفيتش الحي، الذي يتصرَّف بحريَّة في المجلد الأوَّل. لقد حُرِقَ تشيتشيكوف في المجلد الثاني، كدمية ميتة، وآلة شيطانية، تفتح فمها مطيعة وتنطق بأفكار صالحة، كان في إحراقه، مثل مصّاص الدماء، خلاص الفنان والقصيدة.

لم يهتم الإبداع بمدى العواقب الوخيمة لتلك الليلة الشباطية على المبدع، عندما جرى إشعال حزمة كثيفة من الدفاتر في موقد بنار شمعة في الطابق السفلي من منزل تاليزين .

لقد خلط غوغول القصيدة مع حياته الخاصة، لدرجة أنَّه بدأ يتدخَّل بشكل مباشر في حياة شخصياتها، الأمر الذي لم تستطع القصيدة السماح به.

كانت صورة تشيتشيكوف، المبنيَّة في أعماق المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، قادرة على تدمير «النفوس الميتة» كما هي.

لقد دمَّرت القصيدة الغامضة الملهمة غوغول لإنقاذ نفسها، لأنَّها لم تستطع احتواء تشيتشيكوف البائس، الذي يحتضن حذاء الحاكم العام، وليس الحاكم العام نفسه الذي يتزعَّم جميع البيروقراطيين لمحاربة الرشاوى والأكاذيب بلا خطيئة ورهيب مثل رئيس الملائكة، ولا المليونير الحكيم الذي كان يسكب التعاليم بذكاء كما لو أنه أحد الضباط الفرسان، ولا حتّى أولينكا الجميلة.

لقد اصطدمت إرادة المبدع وإرادة الإبداع في النضال من أجل حدود الإبداع نفسه. لم يرغب الإبداع أن يُبْدَع خارج المجلد الأوَّل. لم يرغب المبدع أيضاً أن يترك الإبداع الذي أصبح حياته، دون مزيد من التوسُّع، ولا يمكن أن يكون نتيجة هذه المواجهة إلّا موت إمّا الإبداع وإمّا المبدع.

الإبداع نجا من الموت.

فازت القصيدة. هي لم تتحرَّك من مكانها. هي تنتهي بالكلمات نفسها، التي انتهت بها عند الطبعة الأولى في أيار عام ١٨٤٢. ووراء هذه الكلمات تقف نقطة منيعة.

نشر الفصول المتبقية من المجلد الثاني في عام ١٨٥٥، لم يكن له قيمة لحياة القصيدة، إذ حدث ذلك بعد وفاة المؤلف وليس بإرادته.

انتصرت إرادة القصيدة، المجلد الثاني، الذي أعيدت كتابته بطريقة نظيفة ولكنه لم ير النور. هو رأى فقط ضوء النار داخل فرن الموقد البارد.

القول بشكل تقليدي إنَّ المجلد الثاني كان رائعاً وإن المؤلف حرقه، لأنَّه تصرَّف في حالة من الجنون العقلي، نشأ في دائرة أصدقاء نيكولاي فاسيليفيتش.

«الجزء الثاني من «النفوس الميتة» يكاد يتجاوز الجزء الأوَّل في صراحة السخط على الشر الدنيوي، ومن حيث قوَّة اللوم على الظواهر القبيحة في حياتنا»، كما يؤكِّد الناقد بافيل أنينيكوف، الذي أطلق عليه غوغول لقب جول زمن الشباب في سانت بطرسبورغ (على اسم الكاتب الفرنسي جول جانين) لعقله الفطن، في مذكّراته.

حول أسباب إحراق المجلد الثاني قال جول بصراحة الطبيب متخلِّصاً من الإحساس بالارتباك والتكهنات الزائدة: «هنا تدخَّل المرض النفسي، والحالة المرضية لأعضاء الدماغ».

إن الترابط بين المقولتين لا شك فيه.

الاعتراف بأنَّ المجلد الثاني كان ممتازاً، يعني الاعتراف بأنّ الذي أحرقه مختل عقلياً لم يفهم هذا التفوّق.

تماماً كما منح الأطباء أوفر وإيفينيوس وكليمنكوف أنفسهم الحق في قرار مجلسهم معاملة غوغول «كالشخص الذي لا يتحكَّم بنفسه»، وحرموا غوغول الحق في رفض وصفاتهم العلاجية القائمة على أساس التشخيص الخاطئ ، بالضبط تماماً كما فعل المؤيدون لتفوّق المجلد الثاني من «النفوس الميتة» (لم يكن جول الأوَّل ولا الأخير)، بناء على تشخيص خاطئ أنكروا فيه على غوغول وعي الفنان الواضح، ونتيجة لذلك أنكروا حق المبدع في الحكم على إبداعه بنفسه، وأن يكون محلَّ حكم إبداعه.

لم تكن الخسارة في إحراق المجلد الثاني من «النفوس الميتة»، فالخسارة كان من الممكن أن تكون فيما لو أن المؤلف نفسه نشر الاستمرارية القاتلة للقصيدة. بعبارة صريحة، فضَّل غوغول موته

على موت القصيدة، خوفاً من أنَّه في لحظة ضعف يمكن أن يفوز عليها بانتصار لا يمكن إصلاحه بإصدار المجلد الثاني الذي ينتظره بفارغ الصبر الأصدقاء والمعارف والصحفيون والسيدات والجمهور. في الليلة التي أيقظ فيها غوغول خادمه وأرسله إلى الطابق العلوي لفتح صمّام المدخنة، قرَّر أن يكون مهزوماً.

لم يسيطر عليه الخوف ولا الإثارة المحمومة. وهو لم يبحث عن إشارات لتغيير القرار.

عندما اندلعت النار التي أتت على صفحات الورق المثبَّتة بخيط، انطفأت فجأة وكأنها ترفض قبول الضحية، أخرج غوغول المخطوطة من الموقد، وفك الخيط ورمى الأوراق في الفرن مرَّة أخرى، وقدَّم إليها الشمعة المشتعلة من جديد. كان وهو جالس على الكرسي أمام الموقد، ينظر إلى ألسنة اللهب. حوالي الساعة الثالثة ليلاً تحوَّل المجلد الثاني من «النفوس الميتة» إلى رماد.

لم تكن وفاة غوغول بعد هذا الحدث حتميَّة فحسب، فمن هذا الحدث، بدأت «لحظة موت» غوغول، واستمرت تسعة أيام.

دمَّر المبدع، مستسلماً لإرادة الإبداع بالعيش، إرادة العيش في نفسه، فإحراق مؤلفه الذي أصبح نسيجاً ومعنى الحياة، كان بالطبع إحراقاً للنفس.

ومع ذلك فإن واقعة بقاء مقاطع منفصلة من المجلد الثاني لـ «النفوس الميتة» تشير إلى أن إرادة القصيدة- ربما بدافع حب الشاعر- كانت جاهزة للاستسلام، وفي كلِّ الأحوال، فهي تردَّدت، وهذا التردُّد سمح لكثير من الصور بالهروب من اللهب، التي من بينها «لآلئ إبداعية» مثل صورة تينتيتنيكوف.

بالتحديد نحوه باتجاه الإقطاعي تينتيتنيكوف سَلَف أبلوموف اتجهت عربة تشيتشيكوف لتحتل مساحات المجلد الثاني.

في وصفٍ لكيفية استقرار بافيل إفانوفيتش في منزل الإقطاعي يجري الكشف فجأة عن التفاصيل، كما لو أنَّ الأمر مصادفة، لمحة من ابتسامة سلمية غير مرئية من خلال الدراما القاسية المرئية للعالم.

«على الطاولة أمام نافذتين كان هناك صندوق. على طاولة المكتب أمام الأريكة حقيبة وزجاجة كولونيا وشمع أحمر وفرش أسنان وتقويم جديد وروايتان من نوع ما، كلاهما مجلَّد ثان».

هكذا قيل في بداية المجلَّد الثاني من القصيدة الخالدة التي لم تسمح بأيِّ مجلَّد ثان.

غوغول والجسيمات الأوليَّة

كشف المفكِّر النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين للعالم في «بحث منطق الفلسفة» عام (١٩٢١) شكل اللغة الأكثر بدائية والأكثر شمولية، القادر على «إعطاء وصف لجمل أي لغة إشارة».

مهما كانت الجملة - إيجابية أو سلبية، بسيطة أو معقَّدة، كاملة أو غير مكتملة، مفهومة أو غير واضحة، أيّاً كان ما تحتويه، كذب أو حقيقة، خيال أو واقع، عاطفة أو بلادة - بكلمة واحدة، بأيِّ طريقة وعن أيِّ أحداث وحالات وظواهر تتحدَّث عنها، بما في ذلك رفض إعلان أيَّ شيء، فهي ستظل دائماً ضمن حدود هذا الشكل اللامحدود، الذي يحتوي كلَّ شيء على الإطلاق.

في اللغة الأصلية (الألمانية) يبدو النموذج كما يلي:

«Es verhält sich so und so».

ويعني: «تسير الأمور على هذا النحو».

في البحث، يطلق عليه تسمية «الشكل الأكثر عموميَّة للجملة». أي ليس فقط أشكال لنوع من المصفوفات الفارغة الجاهزة للقبول

والنشر في إطارها الدرامي الذي لا يمكن التغلُّب عليه، ليس فقط أي عدد من الكلمات والمعاني وإنَّما الجملة المكتملة أيضاً. علاوة على ذلك، وفقاً لفكرة فيتغنشتاين فإنَّ هذه الجملة تنقل الشيء الأكثر أهميَّة، وحتى الوحيد المؤكَّد حول وجود العالم: تسير الأمور على هذا النحو.

يميل بعض المعلقين والباحثين إلى اعتبار شكل الجملة الشاملة لفيتغنشتاين كأصغر عنصر أساسي غير قابل للتدمير في المنطق، كنوع من الجسيمات الأوليَّة «للكون المنطقي».

في مجال الروح والذكاء، كما نرى، جرت وتجري البحوث عن إلكتروناتها وبروتوناتها ونيوتروناتها وجزيئات يوكاوا وكواركات.

في إطار مراجعة النشاط البشري، قدَّم في وقتها نيكولاي فاسيليفيتش غوغول مساهمة لا تقدر بثمن، إذ اكتشف شكل مراجعة شاملة أو أكثر عمومية، والذي، كما العنصر الأساسي المنطقي الشهير لفيتغنشتاين، يذهل باكتفائه الذاتي العظيم ووضوحه العالي وبساطتة القصوى.

حدث هذا الاكتشاف بالمصادفة عام ١٨٣٦.

كتب أحد الروائيين مجهول الهوية والمختبىء تحت الأحرف الأولى يا. أ. قصَّة قصيرة ونشرها في سانت بطرسبورغ في طبعة منفصلة. ليس لمحتواها وحبكة أحداثها أيَّ أهميَّة بالنسبة للقضية على الإطلاق. وقع الكتاب في يد نيكولاي فاسيليفيتش الذي كان في ذلك الوقت بالتحديد يشتم البرد القارس في سانت بطرسبورغ (كان ذلك في شباط)، إذ كان يتدفأ بالعمل المنتظم، في كتابة تقرير لمجلة «المعاصر».

قرأ غوغول القصَّة بدقَّة، ووضع بالريشة على ورقة نظيفة ملاحظات حول الكتاب وبدأ يفكِّر في كتابة التقرير.

لا أحد يعرف بالطبع ما هي الأفكار والمشاعر التي تنتاب المكتشف قبل دقيقة من الاكتشاف. ربما أراد غوغول أن يوبِّخ السيد يا. أ. بأقسى الطرق، وكان قد استعرض في ذهنه من أجل ذلك بعض الكلمات اللاذعة، وهو جالس بجانب النافذة، يستمع إلى تنفُّس صفير الصقيع البغيض، أو ربما، على النقيض من ذلك كان يجلس بجانب المدفأة ويستمع إلى ضجيج النار المتسق، فكَّر أنَّه لن يكون من السيئ الثناء على عمل مؤلف غير معروف، لكن لا يمكن استبعاد أن القصة تركت انطباعاً على غوغول، لدرجة أنَّه لم يرغب مطلقاً في الاقتراب منها بتقييمات مباشرة، لكنه كان ينوي أن يبنيَ عليها، كمثال، سلسلة من الحجج حول الأدب الروسي، والتي وعدت بدورها بتقديم

سلسلة كاملة من الحجج المغرية، ربما يكون قد خطر على باله بعض العبارات لمثل هذا النوع من التقرير، والتي نمت وتكثَّفت وطفت الواحدة فوق الأخرى، مثل غيوم شباط المتحركة، ولم يعد هناك أيَّ إمكانيَّة لتبيُّن الجوهرة الصغيرة التي تقبع وراءها، والتي من أجلها جمعته العناية الإلهية مع كتاب يا. أ. الغامض. وفجأة اتضح كل شيء، أصبح كل شيء واضحاً، ورأى غوغول ذلك بوضوح، هذا الجسيم الأولي «للكون الأدبي - النقدي».

لقد رأى التقرير الذي صدمه بإيجازه الشديد وموضوعيته التي لا يمكن إنكارها. كان هذا شكل التقرير الأكثر عمومية، والذي انكشف لغوغول في كلِّ كماله واكتماله. كان ينطبق، في شكله، على أيِّ عمل أدبي حديث الولادة، مهما كان وعن أيِّ شيء يتحدَّث. تحدَّث كتقرير على هذا النحو، عن أهم شيء في حياة العمل.

قام غوغول بتسجيله بسرعة..ها هو:

«لقاء قاتل، قصَّة يا. أ. سانت بطرسبورغ عام ١٨٣٦ مطبعة إدارة المدفعية في وزارة الدفاع ف. ٨ ، ١١٣ صفحة.

لقد صدر هذا الكتاب، الأمر الذي يعني أنَّ القارئ يجلس في مكان ما في هذا العالم».

التاريخ السري للإبداع
كتاب قصص قصيرة

آخر تحوُّل لأوفيد في تاريخ الأدب العالمي لا يمكن للمرء أن يجد كاتباً جرى التقليل من شأنه أكثر من الشاعر الروماني الذي عاش في عهد أغسطس، بوبليوس أوفيديوس ناسو.

تشير اليوم شهرته الكونية على مدار عشرين قرناً إلى شيء واحد فقط، إلى قسوة القلب الفظيعة للأجيال اللاحقة، التي أشادت بالشاعر على كل الأشياء الصغيرة لكنها رفضت الاعتراف بخدمته الأساسية للفن، وبالتالي المجد الحقيقي الذي كان عوَّل عليه أوفيد ناسو في سريرته، (وكان له الحق في التعويل).

لقد عوَّل على هذا المجد، متطلعاً، بالطبع، إلى قرون أبعد بكثير عن عهد أغسطس «الذهبي»، عصر جنَّة الأدب الروماني. ربما الجنَّة إلى حدٍّ كبير أن يكون عرضة للحداثة الكارثية. على أي حال، فإن السكان السعداء لهذه الجنَّة الآنية (والمؤقتة)، شهود مباشرون على أعظم اكتشاف إبداعي، قام به (ناسو سيئ الحظ)، شهود عاديون وليسوا

عاديين على الإطلاق، أولئك الذين رفعتهم الأخوات أونيان فوق الحشد الشعبي المستنير، بعد أن سرقوا أسماءهم من ليثي - المؤرخ تيتوس ليفيوس، والجغرافي سترابو، والخطيب والقارئ كوينتوس كورتيوس روفوس، والفقيه آتي كابيتون، وعالم الحكايات الأخلاقية فِدروس، والنحوي أنطونيوس روفوس، والشاعر كورنيليوس سيفيروس، والخطيب كاسيوس سيفيروس، وأغسطس الإلهي نفسه وحتّى الوصي الأعلى لمكتبة بالاتين غايوس يوليوس هيجينوس الذي رأى وقرأ كل شيء مبجَّل - لم يكونوا قادرين على فهم ما حدث لأوفيد في خريف عام ٧٦١ منذ تأسيس روما أو العام الثامن الميلادي.

لأنَّ ما حدث- والذي تحاول أن تقنعنا به بعض الحقائق البليغة- لم يعترف به معاصرو ناسو، باعتبار الحدث ظاهرة واقعية حقيقية أو أسطورية أو أي واقع آخر من شأنه أن يسمح ببناء أحكام معقولة حول طبيعة الأشياء الخاصَّة به.

خلال عقد كامل، بدءاً من ذلك الخريف الحاسم، الذي تملَّكت فيه الشاعر فكرة إبداعية غير عادية ، بدا له في ضوئها المبهر كل ما كتبه، ويكتبه، بائساً، عندما كان الإلهام ذو الطبيعة الغريبة يَعِدُ بولادة ثمرة غير مسبوقة، جعلته يلقي المخطوطة حتّى قبل اكتمال

«التحوّلات» بالنار، النار الليلية الكثيفة التي زاد اشتعالها ورق البردي ليفيانا، كأنَّها كانت ترمز إلى انفصال الشاعر عن أي موثوقية، سواء كانت أسطورة أم واقعاً. بدءاً من ذاك الخريف حتّى نهاية أيامه كان الفنان أوفيد بالكامل خارج الإيكومين العقلي والحسي المكتشف في عصر أغسطس.

ولكن في الأوقات اللاحقة - كما تخبرنا الوقائع - في الأوقات التي عاش فيها قياصرة آخرون ورجال فن آخرون، كان من غير الممكن إدراك وإحساس أيّ تحوُّل عظيم جرى في مطلع العصر الإمبراطوري مع مؤلَّف «التحوّلات» المجيدة (التي نجت بفضل الأصدقاء الحريصين الذين أعادوا كتابتها كما كانت قبل الحريق الذي لا رحمة فيه).

بغض النظر عن مدى استجابتهم الحيَّة لأحداث عصر أغسطس - كان مواطنو العالم القديم الجدد، سينيكا وسويتونيوس وتاسيتوس وبلوطرخس وبلينيوس الأكبر والأصغر - بغض النظر عن الاهتمام بالمصائر الأسطورية للآباء الموهوبين، بقي من غير الممكن بالنسبة لهم فهم ما فعله أوفيد ناسو منذ عام ٨ وحتى ١٨ في الطرف الشمالي لروما، على «هضبة البستان» (مونت بينسيو الحديثة)، ليس بعيداً عن نهر التيبر، إذ تشعَّبت طرق كلوديان وفلامينيان، وحيث كانت تقف

فيلَّته الريفية، محاطة بشكل رائع بأشجار الصنوبر على شكل مظلَّة وشجيرات الآس العطرية، «البستان» كما كان يسميها، ببراءة، أوفيد نفسه، هذا المكان المفضَّل والمصيري الذي أحبَّته ملهمته (ميوزا) التي خانته، واختبر قوَّتها المستبدَّة على نفسه بالكامل.

هذه الأراضي الممتدَّة تحت الدبَّة إريمانفيان، المنطقة التي أحرقها الزمهرير، لا تدعني أذهب،.

قال، فاضحاً استبداد (ميوزا) التي حوَّلته إلى أسير أحلام راسخة:

ثمَّ أرى نفسي أهرب من سهام السارماتيين، أو أمد يدي لأغلال العدو الثقيلة.

ولكن كيف حدث ذلك؟

كيف حدث أنَّه في السنة الثانية والخمسين من حياته رأى بونتوس[1] فجأة «باردة من الزمهرير الأبدي»، ورأى، «الغيتيين الشُعَث» المتجهمين يحرسون في الليالي حقولهم الذابلة ولكن اللامحدودة الممتدَّة «تحت النجم القطبي»، من غزوات السارماتيين، ورأى «ضفاف استر الباردة»، ورأى صحراء ما موحشة، موطن

(١) الاسم اليوناني القديم للمنطقة الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى. (المترجم).

بورياس المتلألئ ، «حيث توجّه ابنة ليكاون المحور على الأرض»- رأى كل هذا الاتساع الرائع والرهيب «الذي لم يتركه» على مدى عشر سنوات؟

ما هذا السؤال؟! إن مواطن القرن الحالي المطَّلع، معروف لديه كل شيء حتّى أدق التفاصيل.

من المعروف، كما لو كان في خريف العام الثامن، أن أوفيد غادر روما لفترة وجيزة مع صديقه الحميم كوتا ماكسيموس، لقد ذهبا للراحة في جزيرة إلبا على البحر التيراني (نحو ٢٠٠ كيلومتر إلى الشمال من روما)، إذ توجد الممتلكات التي ورثها كوتا، الشاب النبيل والثري، إذ كان والده فاليريوس ميسالا الذي رعى أوفيد، قائداً مميزاً، وخطيباً موهوباً، توفي في الخريف نفسه.

وصل الصديقان بأمان إلى الجزيرة، واستقرا في ملكية عائلة مسالا. كانا يقضيان وقتهما بشكل ممتع في قراءة الأشعار، وشرب الخمر، والأحاديث الرفيعة، وتذكَّرا بحزن مسالا العجوز «جمال الحديث المزخرف اللاتيني». وكانا يزوران في الصباح التلال الساحلية، وهما يتأرجحان على النقّالات، ويتبادلان الأفكار التافهة خلال الغداء الودي. وفجأة (وهذه نقطة تحوّل «فجائية»، صديق كل القصص!)

يأتي مبعوث من العاصمة، من أغسطس نفسه! يظهر ومعه تعليمات من قبيل التي ينبعث منها في قلبي كلا الصديقين روح كابوس مثير، لأنَّها خيالية للغاية. إنَّها خيالية لدرجة أن كوتا ماكسيموس، المتنوِّر جيداً (الموهوب رغم صغر سنه) في أسرار الأفعال والنوايا السامية، يشك في صدق (أو في مدى الصحَّة النفسية؟) لمبعوث القيصر. (هل من جاء بالخبر محق تماماً ؟) - يتساءل هو. كيف يمكن للشاعر أن يجيب عن هذا، رأسه يدور، وقلبه يتمزَّق:

تَرَدَّدْتُ في الردِّ، بين اثنين من الشكوك، في خوف واضح لم أعرف أن أجيب ب «نعم» أو «لا».

معنى الأمر المشؤوم هو في أن الفارس بالوراثة والشاعر بوبليوس أوفيد ناسو يجب أن يظهر فوراً في روما ويمثل أمام القيصر لمعرفة عقوبته. لأنَّه الآن مجرم... نعم! و «شائعة الشر» تعيد «مصيبته»... والدموع بدأت تتدفَّق، «مثل الثلج الذائب تحت أنفاس أوسترو الرطبة» على «الخد الحزين» للشاعر. ولا خلاص. أو ربَّما لا يزال هناك؟ لا يزال هناك ضوء أمل للاستيقاظ من الكابوس. يجب فقط عدم الانغماس في معناه العام المؤلم الذي لا يطاق، يجب التركيز على التفاصيل الثانوية، وعندها يمكن أن يغمز

أحدهما بشكل ودود للعقل المسحور، مانحاً له علامات ثمينة. هذا هو التفصيل المنقذ: المبعوث، على الرغم من الأهميَّة الهائلة، ودرجة الرسميَّة العليا للأمر القاتل الذي يتطلَّب تفسيراً لا لبس فيه وتنفيذاً فورياً، لا يظهر الأمر نفسه، لا يظهر أي ورقة على الإطلاق، مكتوبة أو موقعة من قبل أعلى سلطة. ولكن بالطبع، بالطبع! هذا ما يمنح للشاعر، بعض الوقت، «ليكون بين شكين»، بين عالمين غير متوافقين. وأكثر من ذلك، هذا يعطيه الإمكانيَّة لأن يفضح بسرور خدعة المبعوث الشريرة الماكرة !..

ولكنَّ الشاعر لم يقدم على فضحه. من المعروف أنَّه توجَّه إلى روما.

عُرِفَ فيما بعد أنَّه ظهر في العاصمة ومَثَلَ على الفور أمام أغسطس. كان أغسطس ساخطاً ومليئاً بالغضب الانتقامي. لقد بدا على نحو ما وكأنه عانى للتو أقسى وأبشع إهانة، جرحته حتّى أعماق روحه. ومن أعماق روحه، المتهيئة للانتقام، يصعد بشدة لهيب الغضب. ولكن هذا الغضب لم يكن شخصياً تماماً في الوقت نفسه، إنَّه مظهر من مظاهر الغضب الشديد القائم بذاته، والذي يجب أن ينصب على الشاعر بغض النظر عن أيِّ شيء. وهو الآن ينصب. تظهر أمام ناسو، الآن، صورة مروِّعة لجرائمه الوحشية. لم يعد الشاعر يفهم

كيف استطاع أن يشك في الذي نقله له المبعوث الرهيب على نهر إلبا! كيف استطاع ألّا يصدِّق بأنَّه مجرم! والآن يشعر جيداً بمدى حجم خطاياه أمام القانون الروماني، وهو يعرف أيضاً إلى أيِّ درجة يمكن أن «يمتد غضب» الإمبراطور المطيع للقانون، «إلى الإعدام».

تبقى الصلاة لآلهة الرحمة فقط من أجل أن يوافق مجلس الشيوخ الروماني على قرار عادل بأسرع وقت ممكن، ومن أجل أن يكون إعدامه بسيطاً... ولكن ما هذا ؟ هل يتهيأ ذلك لناسو أم أنَّ هذه الورقة في الواقع أمام عينيه! لا، هذا ليس قرار مجلس الشيوخ ولا محكمة خاصَّة. هذا مرسوم صادر من أغسطس، بشكل مرسوم خاص، الذي قد يلجأ إليه الإمبراطور في حالات استثنائية، عندما لا يمكن إخضاع القضيَّة للتحقيق أو المحاكمة، عندما تكون القضيَّة نفسها وكأنَّ لا وجود لها على الإطلاق، لأنَّها لا تندرج تحت أيٍّ من القوانين القائمة... ماذا يرى ناسو ! الآلهة ترحمه. يتضح من المرسوم أن ناسو لا يفقد حياته ! لا يفقد حقوقه المدنية. لا يفقد كرامة الفروسية. بل إنَّ هذا ليس كلّ شيء، إذ لا تجري مصادرة أي جزء من ممتلكاته الشخصية. وبهذا الشكل فإنَّ جميع ممتلكاته- «إرث الأجداد»- المنزل القريب من مبنى الكابيتول، والأراضي،

وبالطبع الفيلّة القريبة من نهر التيبر، المكان المفضَّل لملهمته (لميوزا) الغريبة، تبقى له.

كل ما هو مطلوب من ناسو المغادرة فوراً- «التوجُّه إلى الأراضي الزراعية بالقرب من بونتوس، وقطع الموجة السكيثية بالسفينة التي تندفع إلى المنفى». أي أن القيصر أمر ناسو بالصعود في الحال إلى سفينة «مينيرفا معتمرة الخوذة» المحروسة «بحب الإلهة الشقراء»، الإلهة نفسها التي كانت تحرس سفينة ياسون، والإسراع على متن هذه السفينة السريعة شقيقة السفينة الأسطورية «أرغو»، «إلى هناك حيث ينتهي العالم»، إلى الشمال الشرقي إلى «نهاية دائرة الأرض»، إلى الأماكن التي لا يوجد بعدها سوى «لا شيء، سوى البرد والظلام والعزلة»... وتلك أماكن غامضة معروفة في روما «بالاسم فقط»، هي مساحات شيطانية! هي زوابع مشعَّة تحت القمر الطائر!.. توميس... توميس...، تحت نور باهت يومض بشكل خافت خارج حدود العالم، مضاء بنور العقل ولمعان السيوف الرومانية. في توميس!، في ذاك الحشد من الملاجئ المليئة بالدخان الخانق، في تلك البلدة التي لا يمكن تصورها والتي يسكنها الساراماتيون والغيتيون نصف المتوحشين الذين لم يكونوا على معرفة باللغة اللاتينية وسلطة

ولاة القيصر، إلى ذلك البلد المميت، إلى تلك السهوب المشؤومة المحبوبة لبورياس فقط، وللشعوب المتجوّلة العنيفة، إلى هناك يجب أن يسرع ناسو!

حسناً، من المعروف جيداً أنَّ ناسو نفَّذ الأمر بشكل لا تشوبه شائبة.

استعد بسرعة، بسرعة لدرجة أنَّه «لم يكن لديه الوقت لاختيار العبيد أو رفيق طريق»، حتّى إنَّه «لم يأخذ ثياباً» ولا «أيَّ شيء يحتاج إليه المنفي»، لأن الأمر، الأمر السامي، ليس ثمَّة أعلى منه إلّا إرادة الآلهة فقط، لم يسمح له بأقل تأخير، ودَّع العائلة والأقرباء، دون معرفة السبب (جاءت هذه الساعة الساحرة عندما «قاد القمر في سماء الليل الخيول»)، ألقى في «النار الجشعة» بيد متسرعة الأغاني عن الأشخاص الذين غيروا مظهرهم، واختفى إلى الأبد من أجل روما العظيمة، من أجل عالم صافٍ.

هكذا حدث أن ناسو «رأى سكيثيا أيضاً»... كان هناك مبعوث. كان هناك غضب. كانت هناك سفينة. وكان هناك الأمر المهلك الذي...

قادني إلى أرض كئيبة للنظر حيث يقع تحت نجمة الصقيع ساحل إيفكسينسكي.

في تلك المنطقة بالذات، في توميس (كونستانتا الحديثة في رومانيا)، ابتكر أوفيد- كما هو معروف جيداً- أكثر أعماله إثارة للشفقة والأكثر إثارة للاشمئزاز، التي لا تطاق، والتي هي نتاج عجز الشيخوخة، والتي من الملاحظ، كما هو مفسّر بشكل رسمي في كتاب «تاريخ الأدب العالمي» (المجلد الأوَّل موسكو، عام ١٩٨٣)، أنَّها كانت تراجعاً كبيراً في الإبداع الشعري [...] يكرِّر خيارات لانهائية لموضوع واحد وحيد، حزن المنفى، ولكن لم يكن بمقدوره بالفعل التغلُّب على رتابة المادة، ليبدأ في التضاؤل ويكرِّر نفسه "، إذ لم يعد الشاعر أوفيد موجوداً، وفقاً لاستنتاجات العديد من الباحثين، لأنَّه تحوَّل إلى شاعر متملّق تافه لأغسطس، إلى ملتمس جبان، ينسج بطريقة ما ويرسل أغانيه البائسة المزعجة إلى روما على أمل أن تلهم أصدقاءه المؤثرين للشفاعة له لدى القيصر لإظهار الرحمة.

أخيراً، من المعروف أن هذه الأغاني، «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس»، الذي يدور الحديث عنها بالتحديد! - لم تنقذ أوفيد، ولم يغيِّر أحد مصيره. لم يَعُد، بلغة الأساطير الإسكندنافية، من أوتغارد المظلمة والباردة، الواقعة في طرف الأرض، إذ تحكم الشياطين وحيث الروعة الكريهة للمساحات التي لا معنى لها، غير قادرة على منافستها في عدوانيتها.

نعم، نعلم كل شيء!، يكرِّر الأحفاد بلا رحمة... ولكن الباحث الروسي الكلاسيكي ميخائيل غاسباروف، الذي نشر عام ١٩٧٨ إلى جانب «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس» في الكتاب العلمي (موسكو، «آثار أدبية») مقالة أكاديمية واسعة «أوفيد في المنفى»، يرى أنَّه، وعلى ما يبدو، كان بالفعل على بعد نصف خطوة من الرحمة. لكن كل ما استطاعت أن تسمح له سمعته كمفكِّر جاد، أن يعبّر بحذر، وبشكل تقليدي، عن عدم فهمه الذي لا يلزمه شيئاً، ولا يدمِّر الصورة المعاد بناؤها علمياً حول منفى ناسو، فيما يخص بعض الوقائع الغريبة جداً، وقبل كل شيء هذه:

«كانت العقوبة قاسية للغاية [...] لكنَّ المعاصرين لم يتركوا لنا، ولا الأحفاد المباشرين (مثل سينيكا)، ولا المؤرخين اللاحقين (مثل تاسيتوس) أيَّ ذكر حول منفى أوفيد، على الرغم من أنَّه كان يبدو، في بعض الأحيان، أن هذا المثال نفسه يستدعي ريشتهم للكتابة. كل ما نعرفه إشارات أوفيد نفسه في «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس». وهذه الإشارات، بالرغم من تعدُّدها، ملتبسة بشكل مدهش».

حسناً، بالطبع، بالطبع! ما عليك سوى محاولة تخيُّل ذلك: سينيكا، ليس فقط «أقرب سليل»،- لقد صادفت مدَّة مراهقته

وشبابه، سنوات نضج وشيخوخة أوفيد، إذ يكتب بحثاً «عن الرحمة»، ويقارن في مكان واحد (١، ١١) وداعة الشاب نيرون وقسوة أغسطس، وباستخدام أمثلة مختلفة من أجل ذلك، يصمت بعناد عن أن أغسطس نفى أحد أعظم شعراء عهده خارج حدود العالم إلى السهوب المميتة، وعلى الرغم من كلِّ توسلات الأخير لم يُعِدْهُ من هناك، بل لم يغيِّر مكان المنفى إلى مكان أكثر أماناً، الأمر الذي كان من طبيعة الأمور، ولاسيما إذا كان الحديث يدور حول مواطن روماني كامل الحقوق، فيما لو جرى قتله أو أسره من قبل بعض اليازيج والكولخيين أو من قبل سرماتيي توميس العنيفين أنفسهم، كان ليشكِّل إهانة غير مقبولة لسلطة روما المقدَّسة. يجب فقط محاولة تخيُّل المكر اللامحدود لسفيتوني الأكثر معرفة، الذي يذكر في الكتاب الثاني «حياة القياصرة الاثني عشر» أن من بين المشاهير الذين نفاهم أغسطس، الإيمائي البائس بيلادس، ولكنَّه يتظاهر، في الوقت نفسه، بأنَّ ليس لديه أدنى فكرة عن منفى الشاعر البارز «الذي أحدث ضجيجاً».

أمّا في الكتاب الرابع، عندما يجري سرد الكتّاب المنقوم عليهم، والذين جرى حظر أعمالهم وسحبها من المكتبات في زمن أغسطس

وتيبريوس (وفيما يتعلَّق بأوفيد، فقد طال هذا المصير أغانيه بالطبع)، لا يكلِّف هذا الوغد نفسه عناء تذكُّر قصَّة شاعرنا المسكين، على الرغم من أنَّه يسميه صديق كاسيوس سيفيروس، الذي طُرد من روما في العام الثامن نفسه. يجب فقط إلقاء نظرة على الأعمال التفصيلية لتاسيتوس، وكتابات بلوطرخوس، ورسائل بلينيوس الأصغر ...لا! لا حاجة للقيام بأيِّ شيء من قبيل ذلك.

لقد قيَّم المعاصرون، و«الأجيال المباشرة»، و«المؤرخون اللاحقون» وقدَّروا عالياً، وفقاً لمذكراتهم، الكاتب العبقري مؤلِّف «ميديا»، و«مرثيات الحب»، و«فاست»، و«علما لحب»، وبالطبع «التحوّلات» الذي لا يضاهى، لكنَّهم لم يكونوا قادرين على الردِّ بأيِّ شكل من الأشكال (حتّى مجرَّد القول بأنَّ أوفيد فقد عقله!) على مثل هذه الأشياء التي تقع بين الأسطورة والواقع، على الخيال الفني،علاوة على ذلك، مثل هذا الخيال الرفيع الذي يمتص السمات التي يمكن التعرف عليها من الواقع، والتي تقع في وسطها «أنا» الخاصَّة، التي تحوَّلت عن وعي إلى شخصية أدبية. ولذلك، فإنَّ كل ما هو مطلوب لفهم «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس» هو النظر بشكل غير متحيِّز إلى هذه الأعمال الأكثر من عبقرية. لقد ترك أوفيد العديد من العلامات من أجل فهم ذلك.

ما هو سبب نفيه؟ ماذا كان ذنبه؟... بيَّن أوفيد هنا ببراعة بأنَّ ذنبه هو مجرَّد شرط فني ثانوي لا يستدعي صياغة دقيقة. حسناً لنقل، هو يقترح على سبيل أن يكون ثمَّة سببٌ واحدٌ فقط لنفيه المشؤوم: «فقط بسبب الشعر الذي قرَّروا أنَّه ضار»، أي أن القيصر أدانه بسبب «علم الحب» الذي صدر وأصبح معروفاً في جميع روما قبل ثماني سنوات من اندلاع غضب أغسطس الرهيب. بسبب هذا الكتاب غير المؤذي تماماً: أنَّه غضب متأخر بشكل غير معقول، ومن الواضح أنَّه غبي. لا، يتراجع أوفيد: «سببان قتلاني: الشعر والهفوة». أو يجب أن أعبِّر على الشكل التالي: «وقعت تحت نير ذنب واحد وإن كان غير صغير»؟.. أو بطريقة ما أكثر تعقيداً، مزدوجة: «لم أفعل أيَّ شيء يحظره القانون، لكن لا بدَّ من الاعتراف بأنَّني أذنبت كثيراً»... أو يمكن التصوّر، بأنَّه «أصبح ضحيَّة» بعض «الأحداث الأخيرة»؟.. أو فقط إنَّه كان «شاهداً على أعمال حقيرة وشريرة»... نعم نعم! «أذنبت العيون عندما رأت شيئاً ما»!.. لا، من الأفضل الإيحاء الرهيب بأنَّ ذنبه المأساوي كان غير عادي و«سريّاً» لدرجة أن الحديث عنه «خطير وطويل» وفي الوقت نفسه، من أجل التشويش يعلن بحزن أنَّ ذنبه «معروف جداً في كلِّ مكان» ولا يستدعي «منه تقديم الدليل». وأخيراً، لنقل بصراحة

يائسة للغلاة والشكليين القادمين، الذين سيبدؤون البحث عن إجابة حول ذنب ناسو، غير ملاحظين الفن في الفن:

...لا حاجة للبحث عن إجابة،

دع الذنب يختبئ وراء قصيدتي «علم».

ولكن للأسف، حتّى هذا كان دون فائدة. بحث الغلاة والشكليون بعناد عن ذنبه الوهمي. وأدَّت بحوثهم إلى ظهور كتاب وهمي أيضاً، على مقياس كوكبي -

Thibault J.C. The mystery of Ovid's exile. Berkeley, California UP, 1964 - والذي ذُكِرَ فيه فيما يخص ذنب ناسو، ما يصل إلى مئة وأحد عشر رأياً معلَّلة علميّاً!..

لماذا يتحدَّث أوفيد على وجه التحديد عن تلك «المنطقة على الضفة اليسرى لبونتوس»، حيث تقع توميس؟ للسبب (الداخلي، الفني) نفسه الذي جعل سفينته تحمل اسم الإلهة مينيرفا. يرتبط هذا المكان، مثل اسم السفينة، ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة التي يستخدمها أوفيد على نطاق واسع لبلورة حبكة «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس» - مع أسطورة ياسون، الذي يقارن أوفيد مصيره بشكل علني وقاطع مع مصيره هو.

وفقاً للأسطورة، وفي ذلك المكان بالتحديد، الذي نشأت فيه توميس، جرى الحدث الأكثر مأساوية- والأقل روعة- تجوال ياسون. هنا كما يروي أوفيد في «مرثيات حزينة»، أبحر ياسون مع «الساحرة ميديا وشقيقها الصغير أبسيرتوس» على متن سفينة بنيت بالرعاية الحربية لمينيرفا، وكانت أوَّل من اجتاز المسافة البعيدة للمياه غير المختبرة". لوحق الهاربون الذين سرقوا الصوف الذهبي من قبل والد ميديا إيت، ملك الكولخيين. عند رؤية سفنه تقترب من الشاطئ، قرَّرت ميديا إيقاف والدها بأكثر الطرق قسوة، فقد قطَّعت أوصال شقيقها وعلقت يديه ورأسه على الجرف الساحلي... «منذ ذلك الوقت يطلق على هذا المكان الذي قطعت فيه الأخت بسيف حادٍّ جسد أخوها توميس»، - يقول أوفيد، الذي تركت لديه دائماً صورة ميديا التي ارتكبت جريمة بشعة من أجل حب ياسون تأثيراً لا يقاوم، كما يلاحظ ذلك بحق س. أوشيروف في مقدِّمة «التحوّلات» (موسكو ١٩٧٧)، أي في الجوهر صدمه جزء معيَّن من أسطورة ياسون - الدراما العظيمة التي جرت مع أبطاله المحبوبين في توميس اللعينة.

ربَّما كان وصف توميس كمكان لمنفاه أصعب مهمَّة بالنسبة لأوفيد، وربما لم تكن إبداعية بقدر ما هي نفسية. لقد تسامى فوق الأسطورة، وخدمته الأسطورة فقط كمادة خام لخيالاته الخاصَّة.

لكن توميس، توميس التي لا يمكن تصورها، والتي لم يكن حتّى سترابو الذي نشر للتو كتابه «الجغرافيا» يملك معلومات واقعية عنها، كان أوفيد مضطراً لأن يصفها فقط وفق التصورات الأسطورية عن الأطراف الشمالية الشرقية للإيكومين.

هنا يوجد كل شيء - «الثلج الأبدي» والرياح المذهلة التي تسوي الأبراج بالأرض، و«تهدم وتجرف المنازل» و«الناس ذوو الأشكال المثيرة للاشمئزاز الذين يلبسون جلود الحيوانات»، والذين «يتدلّى الجليد الملتصق بشعرهم ويرن عند الحركة»، والنبيذ المتجمِّد الذي لا يشربونه، بل يقطعونه بفأس ويتناولونه «قطعاً» (صورة استعارها أوفيد من «جورجيكس فيرجيل»، الجزء الثالث، ٣٦٤)، وكذلك النبيذ الذي «يقف محافظاً على شكل الأباريق» التي انفجرت من الصقيع (انظر «الجغرافيا» لسترابو، الكتاب السابع، الجزء الثالث، ١٨)، و«البحر الصلب»، المتجمِّد بشكل أن المار يسير عليه كما يسير على اليابسة (انظر المرجع نفسه)، والأسماك التي «تبرز من الجليد» حيَّة، والعديد من الصور الأخرى التي تسبِّب بعض الارتباك لأيِّ عالم جاد، على الأقل لدى غاسباروف، الذي قال عنها ما يلي: «من اللافت للنظر أن جميعهم مألوفون مسبقاً لدى

أوفيد وقرائه من الكتب الجغرافية والإتنوغرافية الشهيرة. كل ذلك كان وقائع معروفة للجميع لدرجة أنَّه لا توجد حاجة للبحث عنها في هذه أو تلك من «مصادر أوفيد»، على الرغم من أنَّه، على سبيل المثال، وليس من قبيل المزاح، كان يفترض أنَّه يستطيع أن يأخذ معه إلى المنفى بدلاً من الدليل كتاب «الجغرافيا» لسترابو، الذي كان قد صدر حديثاً في السنة الثامنة بعد الميلاد».

ومع ذلك فإن الارتباك هذا يزول على الفور، فالحديث يدور عن المنفى، المنفى الحقيقي!. يوضِّح العالم أن «أوفيد يحاول عن وعي تحويل صوره إلى علامات شرطية، بحيث لا يتوقَّف القارئ عندها، وإنَّما يدخل إلى معانيها».

نعم، على أمل استيعاب الأجيال القادمة، وعلى أمل التوقُّف ولو بنظرة على شيء ما، حوَّل أوفيد الكثير إلى علامات واضحة بشكل مطلق. لسبب ما كرَّر في كلِّ خطوة (كما لو كان علَّمه ذلك مؤلف «الأنف») أنَّ «كلّ شيء كان هكذا تماماً، ولكن لن يصدِّق أحد»، لأن «قصَّتي الموثَّقة سيعتبرونها مستحيلة». لسبب ما نطق بالكلمات التي كان من الممكن أن تصدر من فم كاتب ماهر في القرن العشرين، حسناً لنقل نابوكوف، المتَّهم من قبل الكتاب التافهين المملين، بالميول الجنسية نحو الأطفال (آه، هذه

«لوليتا»!): «ميوزا اللعوبة، حياتي متواضعة خالية من العيوب. / معظم كتبي - مجرَّد خيال كاذب / ويسمحون لأنفسهم أكثر من مؤلفهم». من أجل ماذا كتب أوفيد قصيدة «إيبيس» التي هي، وفقاً لعلماء الآداب الحيارى، ساخرة ومقصودة ورقيقة ومستهزئة إلى أقصى الحدود بـ «مرثيات حزينة» وبـ «رسائل من بونتوس». لماذا؟ .. لماذا؟..

ومع ذلك، سنترك هذه الأسئلة، ونبحث أخيراً عن السؤال الأخير والأساسي:

هل كانت كلَّها خدعة فكَّر فيها أوفيد مسبقاً أم أنَّها ظهرت مصادفةً تماماً؟

ربما ترك عليه كتاب «الجغرافيا» لسترابو تأثيراً لا يمحى؟ فهو لم يكن مجرَّد «حديث طازج»، كما يعبر بدعابة واضحة غاسباروف، بل إبداع عظيم ومذهل، لا يعرف له مثيل من حيث شمول العالم الذي وصفه. آه، كم كان من المغري أن ينتقل بالخيال إلى آخر حدود هذا العالم، والانغلاق والاختباء من الجميع في «تل البستان» بالقرب من نهر التيبر والوثوق بميوزا، تخيَّل كأنَّك «تعيش بجانبها» في بلد مرعب «يقع على حافة الأرض، حيث يهرب الناس والآلهة»... أو ربَّما «التحوّلات» التي كتبت باختراق غير عادي دفعته إلى وصف تحوّله الخاص، التحوّل

المفاجئ من شاعر غير مبال ولامع إلى مجرم ما حزين وغامض «مطرود إلى الحدِّ الجليدي لأقصى دائرة الأرض»؟ ولكن من الممكن إلى حدٍّ كبير أنَّ «مرثيات حزينة» و«رسائل من بونتوس» كتبتا دفعة واحدة، بلحظة عشوائيةً وملهمة. وفجأة ظهرت وقادت وحملت معها سطراً جميلاً بجنون، وسامياً بشكل مأساوي وهذا هو:

منهك، أرقد خارج حدود الدول والشعوب...

أو آخر:

أعاني في الرمال القاحلة في أبعد منطقة في العالم...

لا، لا يوجد جواب عن هذا السؤال حقاً. مصدر الخيال هو موضوع دقيق للغاية وصعب المنال للدخول في جدل حوله.

ولكن مهما كان الأمر، فهناك عزاء وحيد: دفاعاً عن حقيقة منفى ناسو، من المستحيل تقديم أيَّ شيء آخر سوى أعمال ناسو نفسه، التي فُسِّرت بطريقة معروفة - معروفة منذ زمن بعيد - هي غير مقبولة إطلاقاً بالنسبة للفن. عدم استئصال مثل هذا التفسير يقود إلى فكرة أنَّه يتضمَّن شيء أكثر من سذاجة الإنسان أو قسوته، ربما يحتوي على بعض ما يفوق الانتقام الإلهي بسبب الشغف بالخيال.

حسناً، في هذه الحالة، استحق أوفيد هذا القصاص.

فهرس

الصفحة

غوغول وجواز السفر ٥

غوغول والهواء ٣٣

غوغول والجحيم ٣٩

غوغول وشبح النقطة ٤٩

غوغول وغوغول ٧٠

غوغول والموت ١١٢

غوغول والقطة ١٢٣

غوغول والمجلد الثاني ١٢٩

غوغول والجسيمات الأوليَّة ١٣٩

التاريخ السري للإبداع (كتاب قصص قصيرة) ١٤٣

الهيئة العامة السورية للكتاب

فلاديسلاف أوليغوفيتش أوتروشينكو (١٩٥٩-....)

- كاتب روسي حائز جائزة الثقافة في عام ٢٠١٤؛
- عضو في المجلات الروسية والأجنبية المعروفة؛
- **من مؤلفاته:**
- الطائر الطنان، ٢٠٠٠؛
- التاريخ السري للخلق، ٢٠٠٥؛
- حالة مدينة الهندسة المفضلة، ٢٠٠٨؛

الهيئة العامة السورية للكتاب

د. محمد جميل قاجو

- مترجم سوري؛
- دكتوراه في الصحافة من جامعة روستوف على الدون في روسيا الاتحادية عام ١٩٩٢؛
- محرر ورئيس تحرير في مديرية الأخبار بإذاعة دمشق مدة ثماني سنوات.
- مدير برنامج إذاعة صوت فلسطين من دمشق لأكثر من عشرين عاماً؛
- رئيس القسم الروسي في إذاعة دمشق مدة عشرين عاماً ولا يزال على رأس عمله حتى الآن.
- كتب مئات التعليقات السياسية في إذاعة سوريانا منذ تأسيسها؛
- مؤسس ورئيس الموقع الروسي في وكالة الأنباء العربية السورية سانا منذ عام ٢٠١١م.
- ترجم عدة أفلام وثائقية من اللغة العربية إلى اللغة الروسية وبالعكس للتلفزيون السوري ولشركات عربية خاصة؛

- كتب وترجم عشرات المقالات في صحيفة البعث وصحيفة «كفاح العمال»؛
- محاضر في قسم الإعلام بكلية الآداب في جامعة دمشق منذ عام ١٩٩٤ وحتى عام ٢٠٠٧.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب